لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم: "الشبلي"
« من كلام الجنيد »

تاج الصوفية

أَبُو بَكْر الشِّبْلِي

حياته وآراؤه

الدكتور
عبد الحليم محمود

الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وإمام المحبين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا﴾.

«اللهم لك الحمد، يا ضياء السموات والأرض، ويا بهاء السموات والأرض، وياقيوم السموات والأرض، ويا نور السموات والأرض، بحق أسمائك عليك، وبحقك عليك، فلا حق أجل منك عليك، وبحق ما أنزلت، وبحق من جعلت له فهمًا فيما أنزلت. يا ألله، ويا من لا سواك الله:

صلِّ اللهم على محمد وعلى آل محمد».

[من دعاء الشبلي]

مقدمة

إن لكل صوفى طابعًا معينًا، ولكلامه مذاقًا خاصا.

والصوفية - وإن كانوا جميعًا يسيرون إلى هدف واحد، وغاية لا مذاهب فيها، هى: التوحيد - فإنهم يختلفون فى الشكل، ويتفاوتون فى الطريق. ومن هنا كانت الكلمة المأثورة:

التوحيد واحد. «والتوحيد هو الغاية».

والطريق إلى الله كنفوس بنى آدم.. إنها تتعدد وتتفاوت..

وكثير من الصوفية ساروا فى طريق الحب، وقد اشتهر منهم البعض فى هذا الطريق، والناس جميعًا يسمعون - فى هذا المجال - عن السيدة رابعة العدوية - قدس الله روحها - ولكنهم - فى كثير منهم - لم يسمعوا عن الإمام أبى بكر الشبلى.

والإمام أبو بكر الشبلى صورة جميلة لزاويتين هما من أهم زوايا التصوف - إن لم يكونا أهمها:

أولاهما: حب الله تعالى، ولقد سار فيه الشبلى على طريق مستقيم: إنه أحب الله إلى درجة الهيام، واستولى عليه الحب فكان له السلطان والسيطرة فى كل ما يقوم به «الشبلى» من عمل.

لقد هام «الشبلى» فى رياض الحب، وأخذ يتحدث عنه نثرًا وشعرًا، وشعره فى هذا المجال جميل مؤثر. وما كان يكتفى فى التعبير عن عاطفته بشعره هو، وإنما كان يستشهد بشعر الآخرين فى مختلف المناسبات، وسيرى القارئ الكثير من هذا الشعر فى أثناء الكتاب إن شاء الله تعالى.

بيد أن هذا الهيام الذى كان يستولى أحيانا على الشبلى فيملك عليه جميع أقطاره حتى لا يرى ولا يحس ولا يسمع إلا ماله صلة بمحبوبه، ولا يشعر بشىء إلا بما يعتمل فى صدره من حب الله تعالى...

هذا الهيام المستغرق كان من مظاهره حسن العبادة، وتحقق للشبلى عن طريق المحبة ما وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من مظهر الإحسان بقوله حينما سئل: ما الإحسان؟ فأجاب:

«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

كان الشبلى متعبدًا كأحسن ما يكون العباد المحبون.

وسيرى القارئ شيئًا من تفصيل كل ذلك فى الكتاب إن شاء الله تعالى.

أما الزاوية الثانية – فى صورة الشبلى الجميلة – فإنها زاوية: التوحيد، والتوحيد هو المذهب، والتوحيد فى حياة الشبلى كما يعتبر المذهب والغاية، فإنه بنظرة أعمق فى حياته – يعتبر أيضًا طريقًا، إنه حينما سئل عن التصوف قال:

«بدؤه معرفته، ونهايته توحيده!»

ولكن.. ما هذا البدء؟ إنه معرفة الله واحدًا، ومعرفة ما يجب لهذا الواحد من فروض وواجبات، وما يستحيل عليه سبحانه، إنه معرفته منزَّهًا عن الشريك والند والولد والصاحبة.

وإذا كانت النهاية «توحيد شهادة»: «أشهد أن لا إله إلا الله»، فإن البدء «توحيد معرفة بما يجب وما يجوز وما يستحيل، ومعرفة بما يجب أن يقوم به الإنسان من فروض، وما يجب أن ينتهى عنه من منهيات.

إن البدء توحيد معرفة مكتسبة من خلال كتب الدين، والنهاية توحيد شعور وحال وذوق: وكلاهما توحيد.

وعندما يصل الإنسان إلى توحيد الشعور والحال، فإن التوحيد والمحبة يمتزجان، فيكونان وحدة متكاملة هى: توحيد الحب، أوحب الواحد الأحد.

وامتزج الحب والتوحيد فى حياة الشبلى، فكان ذلك تاجًا على رأسه، وصدقت كلمة الإمام الجنيد:

لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم الشبلى!

ومن أجل ذلك: من أجل هذا التناسق الجميل بين الحب والتوحيد كتبنا عن الشبلى!

والله نرجو أن يهدى بهذا الكتاب، وأن يهدى له، وأن يحيط الشبلى بشآبيب رحمته. وأن يتفضل عليه بحبه.

إنه سميع قريب مجيب...

الفصل الأول

حياته

حياته

من الشخصيات من إذا نظرت إليه، أو قرأت له، جذبك منظره، أو جذبتك القراءة له إلى حبه.

والشبلى من هذا النوع الذى يجعلك تحبه حتى ولو لم تتفق معه فى بعض الآراء، والصنعة البارزة فى الشبلى التى تجعل كل من يقرأ له يحبه، ويعطف عليه هى صفة الحب عنده.

لقد ملك الحب عليه أقطار نفسه، وشغله عن كل شىء سوى محبوبه، لقد هام فى رياض الحب، وتاه فى بيداء الحب، وانغمس فى بحار الحب. وبقى فى اللجة إلى أن وافاه القدر المحتوم.

إن الحب مركز الدائرة فى حياة الشبلى منذ أن أحب، إنه طابعه ومظهره، إنه ظاهره وباطنه، والمحبة، كما يقول الشبلى:

«صراط الأولياء».

أحب الشبلى بكل أقطار نفسه، ولم تتسع نفسه لغير حب الله، وكان هذا الحب يلهيه عن الأكل والشرب، وقد صرفه عن الزينة والملبس الأنيق، ولم يكن فى خياله ولا بين عينيه غير محبوبه.

ولكن هذا الحب سار فى الطريق المستقيم:

لقد كان ثمرة لجهاد فى العبادة لا يفتر. ثم كان ثمرته جهادًا فى العبادة لا يفتر.

والجهاد فى العبادة، من أقسامه، الجهاد فى المجتمع ليستقيم، ليعبد ليحب.

ولقد جاهد الشبلى – من أجل المحبة – فى المجتمع بسلوكه، وجاهد بكلامه، وكان قدوة، وكان واعظا، وكان مدرسًا، من أجل هدف واحد هو: المحبة.

وإذا كان الجنيد قد وصفه بأنه: «تاج الصوفية» فإن هذا التاج إنما هو تاج الحب.

كيف وصل الشبلى إلى ذلك؟

لنبدأ مع الشبلى منذ البداية.

إن اسمه المشهور به هو : أبو بكر الشبلى.

ولا نحب أن ندخل فى تفاصيل الاختلاف فى اسمه، ولكن نحب أن نذكر ما يقوله صاحب الوفيات فى ضبط الاسم، إنه يقول:

... و«الشبلى – بكسر الشين، وسكون الباء الموحدة، وبعدها لام – نسبة إلى (شبلة)، وهى قرية من قرى (أسروشنة) – بضم الهمزة، وسكون

السين المهملة، وضم الراء وسكون الواو، وفتح الشين المعجمة، وفتح النون وبعدها هاء ساكنة وهى بلدة عظيمة وراء سمرقند من بلاد ما وراء النهر».

والشبلى إذن خرسانى الأصل. ولكنه ولد «بسرمن رأى»، ونشأ فى بيت عز وجاه، فقد كان والده حاجب الحجّاب للموفق، وكان خاله أمير الأمراء بالاسكندرية.

وبيت كهذا حينما ينشأ فيه ناشئ فإنه يعنى بثقافته عناية فائقة، والأسس الأولى للثقافة إذ ذاك إنما هى اللغة العربية فى صورة مستفيضة، وهى علوم الشرع فى كثير من العناية، ثم ينظر الشاب الطامح إلى المادة التى يتخصص فيها: حديثًا، أو تفسيرًا، أو فقهًا، أو غير ذلك.

ونشأ الشبلى وصورة والده ماثلة بين عينيه، وهذا أمر طبيعى فى كل ابن له والد نابه.

وأخذ الشبلى يتطلع إلى المجد. واستشرفت آماله إلى الوظائف، وكان الطريق أمامه ممهدًا: فهو ابن موظف كبير فى الدولة.

وكما يسر الله طريق الثقافة له، فإنه يسر له طريق الوظائف، ووصل الشبلى إلى أن كان حاجبًا للموفق وهو ولى العهد، وكان الشبلى أيضًا واليًا على: «دنباوند»... يقول صاحب الوفيات:

... «دنباوند» – بضم الدال المهملة، وسكون النون وفتح الباء الموحدة، وبعدها واو مفتوحة، ثم نون ساكنة، وبعدها دال مهملة – وهى

ناحية من نواحى رستاق «الرى» فى الجبال، وبعضهم يقول: «دماوند»، والأول أصح.

ويقول صاحب الكواكب الدرية:

«هو خرسانى الأصل، بغدادى المنشأ، كان واليًا بنهاوند وبالبصرة، وكان والده حاجب الحجاب للموفق».

ولعل الشبلى تدرج فى الوظائف من مدينة إلى أخرى أكبر منها أو أهم منها، وهذا طبيعى فى المناصب.

وما كان الشبلى فى يوم من الأيام منصرفًا عن العلم، بعد أن تثقف الثقافة العامة، ولم تشغله الوظائف عن السمو بأفقه عن طريق العلم.

لقد درس، وثابر، وسهر الليالى فى طلب العلم. بل كان يحضر دروس العلماء وهو فى وظيفته.

يقول السلمى عنه:

«كتب الحديث الكثير. ورواه».

ويقول عنه الإمام المناوى:

«تفقه على مذهب الإمام مالك، وكتب حديثًا كثيرًا...».

ويقول صاحب الشذرات:

«... وكان الشبلى فقيهًا عالمًا كتب الحديث الكثير».

ويقول أحمد بن عطاء: سمعت الشبلى يقول:

«كتبت الحديث عشرين سنة!

وجالست الفقهاء عشرين سنة».

ولم تكن دراسته هينة، فقد أخذ نفسه بالعزائم، فحفظ «الموطأ» عن ظهر قلب، أما القرآن الكريم فإنه لم يكتف بحفظه بقراءة واحدة، وإنما درس أكثر من رواية.

وانتهى به الأمر إلى أن أصبح عَلمًا من أعلام العلماء، وأصبح صاحب حلقة يدرس فيها ويعظ، ويهدى بقوله وسلوكه، واستحق أن يقول فيه أبو عبدالله الرازى:

«لم أر فى الصوفية أعلم من الشبلى»

وكانت له مع العلماء جولات.

مسائل من علم الشبلى

إن الشبلى مر يومًا بأبى عمران وهو يدرس فى حلقته. فلما رآه أبو عمران قام إليه وأجلسه بجنبه فأراد بعض أصحاب أبى عمران أن يرى الناس أن الشبلى جاهل - فقال له: يا أبا بكر:

إذا اشتبه على المرأة دم الحيض بدم الاستحاضة، كيف تصنع؟

فأجاب بثمانية عشر جوابًا.

فقام أبو عمران وقبل رأسه وقال:

يا أبا بكر: أعرف منها اثنى عشر، وستة ما سمعت بها قط.

ومن ذلك ما يقوله أبو القاسم عبد السلام بن محمد المخرمى، يقول: سمعت الشبلى.

- وسئل عن قول الله:

﴿ادعونى أستجب لكم﴾

قال:

«ادعونى بلا غفلة، أستجب لكم بلا مهلة».

وسئل عن قوله تعالى:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾.

قال:

«أبصار الرؤوس عما حرم الله تعالى، وأبصار القلوب عما سوى الله».

وكان ابن بشار ينهى الناس عن الاجتماع بالشبلى، والاستماع لكلامه. فجاءه ابن بشار يومًا يمتحنه، فقال له ابن بشار: كم فى خمس من الابل؟

فسكت الشبلى، فأكثر عليه ابن بشار، فقال له الشبلى:

فى واجب الشرع شاة، وفيما يلزم أمثالنا كلها.

فقال له ابن بشار:

هل لك فى ذلك إمام؟

قال: نعم

قال: من؟

قال: أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، حيث أخرج ماله كله، فقال له النبى، صلى الله عليه وسلم: «ماخليت لعيالك؟»

قال: الله ورسوله – فرجع ابن بشار، ولم ينه بعد ذلك أحدًا عن الاجتماع بالشبلى.

ويقول محمد بن عبد الله. سمعت الشبلى يقول فى قول الله:

﴿يمحو الله مايشاء ويثبت﴾

قال:

يمحو مايشاء من شهود العبودية وأوصافها، ويثبت مايشاء من شواهد الربوبية ودلائلها.

وسئل عن قوله تعالى:

﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾

فقال:

كل ما دون الله لغو.

وكان يقول:

«حفظ الأسرار صونها عن رؤية الأغيار»

ومما يروى عن أبى القاسم عيسى بن على بن عيسى الوزير يقول:

كان ابن مجاهد يومًا عند أبى – فقيل له: الشبلى.

فقال: يدخل.

فقال ابن مجاهد: سأسكته الساعة بين يديك، وكان من عادة الشبلى إذا لبس شيئًا خرق فيه موضعًا، فلما جلس قال له ابن مجاهد:

يا أبا بكر: أين فى العلم إفساد ما ينتفع به؟

فقال له الشبلى: أين فى العلم؟

﴿فطفق مسحًا بالسوق والأعناق﴾

قال: فسكت ابن مجاهد

فقال له أبى: أردت أن تسكته فأسكتك!

ثم قال الشبلى له: قد أجمع الناس أنك مقرئ الوقت. أين فى القرآن: الحبيب لا يعذب حبيبه؟

قال: فسكت ابن مجاهد

فقال له أبى: قل يا أبا بكر.

فقال: قوله تعالى:

﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾.

فقال ابن مجاهد: كأنى ماسمعتها قط.

أما موضوع إحداث خرق فى الثياب فإنه يرتبط بمحاولة البعد عن العجب والفخر أو الخيلاء أو الكبر، وما كان خرق الثوب افسادًا كليا له، وإنما إفساد للفخر به، وإفساد للعجب به، وكانت الناس تعلم ذلك عن الشبلى، ويفسرونه التفسير المناسب، ماعدا هؤلاء الذين يكرهون الصالحين من عباد الله.

وسئل الشبلى عن: **﴿الرحمن على العرش استوى﴾.**

فقال:

«الرحمن لم يزل. والعرش محدث. والعرش بالرحمن استوى».

وسئل: ما الحكم فى أنه تعالى ذم الاستهزاء والمكر، ثم فعلها؟ فقال:

ويقبح من سواك الفعل عندى   فتفعله فيحسن منك ذاك

فقال السائل: أسألك عن القرآن فتجيب بالشعر؟! فقال:

لم أجب به إلا لتعلم أن فى أقل قليل أدل دليل: تخليته تعالى بينهم وبين الاستهزاء، والمكر مكر منه بهم، إذ لو شاء لمنع.

وسئل الشبلى: عن أرجى آية فى القرآن؟ فقال:

﴿قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف﴾.

قال:

فإذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر (لا إله إلا الله) مرة واحدة. أترى من واظب عليها طول عمره، كيف يمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟!

وقال:

«من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبوبكر، ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علىّ، وكل علم لا يؤدى إلى ترك الدنيا فليس بعلم!».

وجاء رجل فقال: ياسيدى كثرت عيالى، وقلت حيلتى، فقال له:

ادخل دارك: فكل من رأيت رزقه عليك فأخرجه، وكل من رأيت رزقه على الله فاتركه فى الدار؟

ومن تقدير الشبلى للعلم أن كان يقول:

ليس الكامل من يوصل كل يوم ألفًا من العوام، بل من يوصل فقيهًا واحدًا فى أعوام، وفى قصة موسى والخضر كفاية لكل معتبر.

ومن طرائفه فى الشرح أنه سئل عن قول النبى، صلى الله عليه وسلم: «جعل رزقى تحت سيفى».

فقال: سيفه الله: أما ذو الفقار فهو قطعة من حديد».

وما من شك فى أن الرزق تحت إرادة الله تعالى، يقول سبحانه:

﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾.

ويقول:

﴿وفى السماء رزقكم وما توعدون، فورب السماء، والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾.

ويقول:

﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها﴾.

وكان أحمد بن محمدبن مقسم يقول: حضرت أبا بكر الشبلى، وسئل عن قوله تعالى:

﴿إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب﴾.. فقال: «لمن كان الله قلبه» وأنشد

ليس منى قلب إليك معنى   كل عضو منى إليك قلوب

وتلا قوله تعالى:

﴿فإذا برق البصر، وخسف القمر﴾... إلى قوله:

﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾، فلحظوا فهم ما أشار إليهم. فقال بعضهم: متى يصح ذا؟ قال:

«إذا كانت الدنيا والآخرة حلمًا. والله تعالى يقظة!».

وأنشد:

دع الأقمار تغرب أو تنير   لنا بدر تذل له البدور
لنا من نوره فى كل وقت   ضياء ما تغيره الدهور

أما عن الله تعالى، فإنه يقول:

إن الله تعالى موجود عند الناظرين فى صنعه، مفقود عند الناظرين فى ذاته.

أدركته العناية

استمر الشبلى مندفعًا وراء العلم حديثًا وفقها.. ثم، ثم ماذا؟

يقول الإمام المناوى:

تفقه على مذهب الإمام مالك، وكتب حديثًا كثيرًا.. ثم شغلته العناية عن الرواية.

وكلمة الإمام المناوى:

«شغلته العناية عن الرواية».

لها قصة، وذلك أن الشبلى وهو فى طريقه فى الدنيا والجاه والمناصب والعلم الكسبى، إذا به يحضر دروس ولى الله «خير النساج».

وقبل أن نسير مع الشبلى، فإنه لابد من لمحة عابرة عن خير النساج، وقد كتبت عنه كتب الطبقات، وعنها نوجز مايلى:

كنيته أبو الحسن، كان أصله من سامرا، وأقام ببغداد - صحب أبا حمزة البغدادى، وسأل السرى السقطى عن مسائل، وكان إبراهيم الخواص تاب فى مجلسه، وكذلك الشبلى تاب فى مجلسه - عمر طويلًا، وكان من أقران النورى وطبقته.

قال أبو الحسن المالكى:

سألت من حضرموت النساج عن أمره، فقال:

لما حضرته صلاة المغرب غشى عليه، ثم فتح عينيه وأومأ إلى ناحية باب البيت، وقال: قف عافاك الله! إنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور، وما أمرتَ به لايفوتك، وما أمرتُ به يفوتنى، فدعنى أمضى فيم أمرتُ به، ثم امض لما أمرت به، فدعا بماء فتوضأ وصلى، ثم تمدد وأغمض عينيه، وتشهد ومات.

وقد سمعه أبو بكر الرازى وهو يقول:

«من عرف من الدنيا قدرها وجد من الآخرة حقها، ومن جهل من الآخرة حقها قتله من الدنيا نزرها».

وقال:

الصبر من أخلاق الرجال، والرضا من أخلاق الكرام.

وقال:

من سبق بخطوة لا يدرك إذا كان صادقًا مجتهدًا.

وقال خير النساج:

الإخلاص هو الذى لا يقبل عمل عامل إلا به.

وقال:

ميراث أفعالك مايليق بأفعالك. فاطلب ميراث فضله، فإنه أتم وأحسن.

قال الله تعالى:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾

وقال:

الخوف سوط الله فى الأرض، يُقوّم به أنفسًا قد تعودت سوء الأدب، ومتى ما أساءت الجوارح الأدب، فهو من غفلة القلب وظلمة السر.

[انظر طبقات السلمى، وطبقات الشعرانى، والكواكب الدرية].

حضر الشبلى دروس هذا الرجل، وفتن به، وذلك أنه بصره بأمور آخرته، وأمور دنياه: إن الله سبحانه يقول:

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا.. كُلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا.. انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلًا﴾

وما من شك فى أن خير النساج من خير من يتحدثون عن هذا الموضوع، وهو من أئمة من يعبرون عنه بشعورهم وبسلوكهم وبحديثهم.

إن الجرى وراء المناصب، والفخر والخيلاء، والمال والثراء، والزينة، فى جشع وفى تكالب.. وإن الاستسلام إلى الملذات والشهوات، والنزعات، إن كل ذلك متاع الحياة الدنيا، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾.

وكان حديث «خير النساج»، وقد تجرد إلى الله، وامتلأ قلبه بحبه، مؤثرًا عذبًا.

وانتبه الشبلى إلى نفسه فى قوة، وزاف الباطل كله فى لحظات، وانتفض من أعماقه انتفاضة قذفت به مراحل فى طريق الأتقياء، ومن الله عليه بجذبة من جذباته.

وإن فى تراثنا الروحى من هذا القبيل بيان جميل لكثير من هؤلاء الذين اجتباهم الله سبحانه، فأخذهم عن أنفسهم إليه، أو - على حد تعبير الجنيد - أماتهم عن أنفسهم، وأحياهم به سبحانه. إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾.

وهؤلاء الذين اجتباهم الله لو لم تدركهم عنايته، سبحانه، لساروا فى حياتهم عبيدًا لشهواتهم، ثم ماتوا فى جو من مقت الله، ومن غضبه.

ولكنهم حينما أدركتهم عنايته سبحانه أصبح لهم ذكر عطر على كل لسان: ذلك أنهم ألقوا بأنفسهم فى رياض الطاعة عابدين متهجدين، صائمين قائمين.

وألقوا بأنفسهم فى المحيط الاجتماعى، هادين مرشدين، دالين على الله سبحانه.

وكان من علامة رضاء الله عنهم وحبه لهم، أن ألقى حبهم فى قلوب الصالحين من عباده، وهدى على أيديهم الكثيرين ممن كانوا بعيدين عن جو التقوى، ودخلوا بذلك فى إطار:

لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من الدنيا وما فيها.

ولأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم.

ولم تقتصر هدايتهم للحيارى والعصاة والشاكين والبائسين على وجودهم فى الحياة، فإن آثارهم بعد انتقالهم إلى عالم الآخرة استمرت أنوارها هادية للحيارى، والعصاة، والشاكين والبائسين.

وإن الله سبحانه من فضله ومن كرمه يقول:

﴿سنكتب ما قدموا وآثارهم﴾.

وآثار الصالحين ترفع إلى السماء فتسطر فى سجل حسناتهم يومًا فيومًا، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ونعود إلى الشبلى وأستاذه:

لقد أثر خير النساج تأثيراً قويا على الشبلى. فزلزل نفسه من جذورها، ودفعها دفعًا نحو الطريق إلى الله، فنزع حب الرياسة من قلبه، وتهافت حب الملذات من شعوره، واستشرفت نفسه إلى سعادة من نوع آخر.. لقد أخذ يتطلع إلى ما قاله إبراهيم بن أدهم:

«نحن فى سعادة، لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف».

والشبه بين حياة الشبلى وحياة إبراهيم بن أدهم قوية، فقد كان كل منهما صاحب مركز مرموق، كان ثريًا واسع الثراء، كان ذا جاه عريض.. وفى لحظة من اللحظات - أنضر ما يكون شباباً وفتوة - زاف الباطل، كل الباطل، من بين عينيه، واتجه فى لحظة إلى الباقيات الصالحات، وأصبح - وما زال - مصدراً للهداية، واشعاعًا من النور ينير منازل السائرين..

وإذا كانت توبة إبراهيم بن أدهم لم تسر على النسق العادى المألوف، وإنما كانت آية من الآيات الخارقة للعادة، فإن توبة الشبلى - وهى آية من آيات الله - سارت على النسق المألوف.

لقد تاب على يد خير النساج، وكانت توبته صادقة، وإذا صدقت التوبة أثمرت مباشرة الاستقامة، دون زمن فاصل أو حدود مُعَرِّقلة.

واستقام الشبلى فى قلبه وروحه وشعوره وجوارحه، وما كان يتأتى - وقد وصل إلى ذلك - أن يجرى وراء المظاهر: إنه يريد أن يتفرغ للدعوة

إلى الله فى نفسه حتى تتزكى، وفى المجتمع حتى يستقيم..

ومن أجل هذه العناية النبيلة قام بأمرين:

١ - أما الأمر الأول فهو أنه رجع إلى البلدة، التى كان والياً عليها وقال لأهلها:

أنا كنت صاحب الموفق، وكان ولانى بلدتكم هذه، فاجعلونى فى حل، فجعلوه فى حل، ولكنهم اعتقدوا - فيما يبدو - أن الموفق أصبح غاضباً عليه، فما كان يتأتى - فى نظرهم - أن يترك أحد الولاية باختياره، وأحبوا أن يكافئوه بشىء، فجمعوا له مالاً وهدايا:

«وجهدوا أن يقبل منهم شيئاً، فأبى»

وذهبت الإمارة، وذهب معها كل ما يحيط بها، وما يكمن فيها من مفاسد وسيئات، وتحلل الشبلى - بذلك - مما كان ينوء به من مظاهر الدنيا.

٢ - أما الأمر الثانى فهو ما يعبر عنه صاحب الوفيات وغيره بقوله:

«ومجاهداته فى أول أمره فوق الحد»

وتغيرت حالة الشبلى رأسًا على عقب: لقد تغيرت فى الأصدقاء، كان أصدقاؤه من حاشية الموفق، ومن الأثرياء وأصحاب الجاه، ولكنه بعد التوبة:

«صحب الشيخ أبا القاسم الجنيد ومن فى عصره من الصلحاء، ومن فى طبقة الجنيد».

كان الجنيد - إذ ذاك - مركز الجاذبية للصوفية: كان متزنًا كامل الاتزان، وكان متعبدًا على علم، وكان عالمًا كأجمل وأعمق ما يكون العلم.

كانت الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه[1].

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والصوفية لإشاراته وحقائقه...

أرأيت كيف يكون العلم النافع إشعاعاً نورانيًا لمختلف المثقفين فى الشعب؟ على أن هؤلاء الذين كانوا يحضرون دروس الجنيد لم يكونوا طلبة بالمعنى العادى للكلمة، وإنما كانوا علماء وأساتذة فى فروع العلم المختلفة.

ولا ريب فى أن الذين كانت تجذبهم أنوار الجنيد بصورة أشد إنما كانوا من أصحاب المواجيد والأذواق: أى من الصوفية، وكان الجنيد إماماً لهم، ومرشداً، وآخذاً بأيديهم إن قصروا، ومهدئًا لهم إن زاد بهم الوله: لقد كان

---

(١) والكتبة هنا هم اللغويون والأدباء الذين يعدون أنفسهم للكتابة، أو الذين يعملون فيها بالفعل، وكانت وظائفهم عادة الكتابة فى قصور الأمراء.

قائداً يفرح بالنابه من جنده، ويشد أزر من تعثر به الطريق، ويرد جماح جامحين، والكل يدين له بالفضل ويعترف له بالتقدير.

وارتبط الشبلى بالجنيد، وما كان يهدأ الشبلى إذا أتاه الوارد حتى يذهب إلى الجنيد ويتحدث إليه ويسمع منه.

وحينما يأتيه الوارد ويأخذ فى البحث عن الجنيد لا يرى الأشخاص الآخرين، ولايعرفهم، وإن كان قد التقى بهم أكثر من مرة، إن صورة الجنيد تسيطر على فكره، بل وعلى بصره، حتى لا يكون فيها غيره.

ذهب مرة يبحث عن الجنيد، وسار هنا وهناك، ودخل المسجد، ومر بأناس كثيرين، وكأنه لم ير منهم أحداً، ولذلك لم يسلم على أحد، ثم ذهب إلى بيت الجنيد، فوقف بين يديه، وصفق بيديه، وأنشأ:

عودونى الوصال والوصل عذب ... ورمونى بالصد والصد صعب
زعموا حين أزمعوا أن ذنبى ... فرط حبى لهم وما ذاك ذنب
لا وحق الخضوع عند التلاقى ... ما جزى من يحب إلا بحب

فأجابه الجنيد:

وتمنيت أن أرا ... ك فلما رأيتكا
غلبت دهشة السرو ... ر فلم أملك البكا

وأحب الجنيد أن يخفف مرة عن الشبلى فقال له مداعباً:

لو رددت أمرك إلى الله استرحت.

قال: لا، بل لو رد الله أمرى إليه لاسترحت.

فقال الجنيد: سيوف الشبلى تقطر دماء.

ودخل على الجنيد يومًا، فقال له الجنيد مداعباً أيضاً:

من كان الله همه طال حزنه.

فقال الشبلى: لا، من كان الله همه زال حزنه..

وكان الجنيد والشبلى كلاهما يحبان السماع، ولهم فى ذلك طرائف:
أما الشبلى فإنه صاح يومًا فى السماع، فقيل له فيه، فقال:

لو يسمعون كما سمعت كلامها ... خروا لعزة ركعًا وسجودًا[1]

وأما عن الجنيد فإن الشبلى يقول:

وكان أكثر اقتراح الجنيد على القوالين هذه الأبيات:

فلو أن لى فى كل يوم وليلة ... ثمانين بحرًا من دموع تدفق
لأفنيتها ثم ابتدأت بغيرها ... وهذا قليل للفتى حين يعشق
أهيم به حتى الممات لشقوتى ... وحولى من الحب المبرح خندق

(١) ويروى صاحب النجوم الزاهرة أن للشبلى هذين البيتين:

تغنى العود فاشتقنا ... إلى الأحباب إذ غنى
وكنا حيثما كانوا ... وكانوا حيثما كنا

وفوقى سحاب تمطر الشوق والهوى ‍ ‍ ‍ ‍ وتحتى عيون للهوى تتدفق

ومن تقدير الجنيد للشبلى هذه الكلمة المعبرة:

يقول أبو بكر محمد بن أحمد المفيد. سمعت الجنيد بن محمد - وأقبل يومًا على الشبلى - يقول:

حرام عليك يا أبا بكر إن كلمت أحدًا فإن الخلق غرقى عن الله، وأنت غرق فى الله..

وأحب الجنيد أن يبين للناس قدر الشبلى، وأن يصرفهم عن نقده فى حبه الجامح، وعن ذلك يقول أبو جعفر الفرغانى، سمعت الجنيد يقول:

«لا تنظروا إلى أبى بكر الشبلى بالعين التى ينظر بها بعضكم إلى بعض، فإنه عين من عيون الله تعالى».

وهذه الكلمة للجنيد تسلمنا. إلى الحديث عن نظرة الكندى إلى التصوف: طريقًا وغاية.

الفصل الثانى

الشبلى وتعريف التصوف

التصوف

كان أول ما وجه انتباهى إلى البحث عن الشبلى، ما قرأته عنه منذ زمن بعيد، وقد سئل:

لم سميت الصوفية بهذا الاسم؟ فأجاب:

إنما سميت الصوفية صوفية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولاها ما تعلقت بهم تسمية.

ويريد الشبلى أن يقول: إن الاتجاه إلى الله والقرب منه سبحانه – وهذا هو التصوف – يقتضى أن يتجرد الإنسان من النزغات والشهوات والنفس الأمارة بالسوء، وأن تذوب شخصيته فى جو الأخلاق الربانية، وتمحى إرادته فى إرادة الله، وأن يكون هواه تبعاً للشريعة. يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وما من شك فى أنه لا يؤمن الإنسان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم:

والله لأنت يا رسول الله أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى، فقال: لا – والذى نفسى بيده – حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إلىّ من نفسى، فقال: الآن يا عمر..

(رواه البخارى)

وقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

الآن يا عمر.

أى أن الأمر الآن قد استقام، وبلغ الإيمان غايته.

وكل هذا معناه أن الإنسان المتمسك بفرديته الشخصية وبشريته، لا يكون سائراً فى جو القرب من الله سبحانه، ولقد قال الجنيد مرة فى تعريف التصوف:

أن يميتك الحق عنك، ويحييك به.

أى يميتك الحق عن أن تنظر إلى أعمالك، وعن أن تتحرك بصفاتك، وتسير على هواك، ويحببك بالتخلق بالأخلاق الربانية.

وهذا أيضاً هو معنى الاصطلاح الصوفى «الفناء والبقاء»: ومعناه الفناء عن ما هو مذموم، والبقاء بكل ما هو محمود، أو – بتعبير أدق – الفناء عن البشرية:

أى نسيان الإنية، والبقاء بالربانية.. يقول الإمام القشيرى:

أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة. فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

ويقول:

«فمن ترك مذموم أفعاله بلسان الشريعة يقال إنه فنى عن شهواته. فإذا فنى عن شهواته، بقى بنيته وإخلاصه فى عبوديته.

ومن زهد فى دنياه بقلبه، يقال فنى عن رغبته.

فإذا فنى عن رغبته فيها، بقى بصدق إنابته.

ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد، والبخل والشح، والغضب والكبر، وأمثال هذا من رعونات النفس، يقال: فنى عن سوء الخلق.

فإذا فنى عن سوء الخلق، بقى بالفتوة والصدق». اهـ.

وكل هذا - أيضًا - ليس معناه إلا القرب بقدر الاستطاعة من:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾.

أن تكون الحياة لله وحده. وما دامت لله وحده فليس للإنسان منها حظ، إنها كلها لله، وهذا هو المعنى الحقيقى لكلمة التوحيد:

أشهد أن لا إله إلا الله

فإذا ما شهد الإنسان التوحيد فهو من أولى العلم، ودخل فى نطاق الآية القرآنية الكريمة:

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

ومما يوضح ما نقصده، أن يتحقق الإنسان بقوله تعالى:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ولا عجب فى أن يقول بعض العلماء:

إن سر القرآن فى الفاتحة، وسر الفاتحة فى:

﴿إياك نعبد وإياك نستعين[1]﴾.

---

(١) روى ابن كثير، عن بعض السلف قوله: إن الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾. فالأول أى قوله تعالى: ﴿إياك نعبد﴾ تبرؤ من الشرك، والثانى أى قوله تعالى: ﴿إياك نستعين﴾ تبرؤ من الحول والقوة، وتفويض إلى الله عز وجل.=

وإن: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ تعبير صادق عن التوحيد -

=وهذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن، منها قوله تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾اهـ.

وهذه الكلمة القرآنية قد قدم الله سبحانه وتعالى لها بما يعتبر أساساً ومبرراً. يقول سبحانه وتعالى: ﴿ولله غيب السماوات والأرض، وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، وما ربك بغافل عما تعملون﴾.

والله، سبحانه وتعالى، يخاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، قائلاً له:
﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾.. ويقول سبحانه:
﴿رب المشرق والمغرب، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً﴾.

وما من شك فى أن الآية الكريمة: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، تعنى عناية واضحة وجوب إخلاص العبادة لله وحده، ووجوب قصر الاستعانة على الله وحده، والقرآن يوضح، بما لا مزيد عليه، أن الله سبحانه وتعالى، هو وحده المتصرف فى الكون، إنه المتصرف فى اليسير من أمر الكون وفى العظيم منه.

﴿قل اللهم مالك الملك، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾.

وهو سبحانه، كما يملك السموات والأرض، وكما يمسكهما أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم:

إنه يملك البصر فى العين، ويملك السمع فى الأذن، كما يملك العين والأذن، ويملك الصحة فى الجسم الصحيح، ويملك استمرار الجاه عند ذوى الجاه، ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله، ومنع استمراره.

إن قوله تعالى: ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾، عام شامل، ومن أجل ذلك فإن العبادة يجب أن تكون خالصة له، وأن الاستعانة يجب أن تتمحض له.

ولقد رسم سبحانه الوسيلة الصحيحة للاستعانة المثمرة به، إنها إخلاص العبادة له فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير والعون، من أحب أن يستجيب الله له فليحقق العبودية له سبحانه، فإياك نعبد وسيلة لتحقيق ﴿وإياك نستعين﴾: وفى حديث=

والتوحيد نهاية التصوف، يقول الشبلى فى تعريف التصوف:

«بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده».

فإذا ما وصل الإنسان إلى التوحيد الصادق، فقد تخلى عن جميع أهوائه ونزغاته ونزعاته وفرديته وإنيته، وجميع صفات التحديد فيه، ودخل بذلك فى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

ولم تصبح له نية لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، وإنما تصبح هجرته إلى الله، ورسوله خالصة صافية صادقة، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الإمام البخارى:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ مانوى، فمن كانت هجرته

=قدسى رواه الإمام البخارى توضيح لذلك، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عن ربه: «من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، ومايزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته. ولئن استعاذ بى لأعيذنه».

هذا الحديث الشريف يبين فى وضوح أن أحب شىء يتقرب به الإنسان إلى الله، إنما هو أداء ما فرض الله عليه، وأن الإكثار من النوافل، مع أداء الفرائض وسيلة إلى حب الله، سبحانه وتعالى، لعبده وإذا أحب الله إنسانا كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير، واستجاب له إذا سأل، وأعاذه إذا استعاذ.

وبعد: فإن ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ هى تحقيق للايمان الصحيح والتقوى الصادقة، أى أنها الصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه، والله تعالى يقول:

﴿ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة، لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾.

إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

والشبلى حينما يقول فى تعريف التصوف الذى ذكرناه: «ونهايته توحيده».

إنما يتحدث عن درجة الوصول: أى الدرجة التى يطلق فيها على الإنسان أنه «صوفى»، وهى الثمرة السامية لتزكية النفس التى يقول الله سبحانه عنها:

﴿قد أفلح من زكّاها﴾.

وهذه الثمرة لها طرق عدة، ومن هنا يقول سادتنا، رضوان الله عليهم:

«التوحيد واحد، والطرق إلى الله كنفوس بنى آدم».

إن الناس يتفاوت استعدادهم، ويسهل على بعضهم ما لا يسهل على الآخرين، ولعل ذلك يفسر جزءًا من الحكمة فى اختلاف أنواع العبادات من ذكر وصلاة وصيام... وفتح باب النوافل فى ذلك طويلًا عريضًا مع تحديد حد حتمى من الفروض، وفى باب النوافل - فى أى منها - متسع للاجتهاد. وكل منها - بتوفيق الله - يقود إلى التعرض لنفحات الله، وفى الأثر:

«ألا إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها».

وما من شك فى أن السر فى القرب هو فضل الله تعالى ورحمته:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدًا﴾.

وتعددت - إذن - وسائل الوصول إلى تزكية النفس، وتعددت طرق الوصول إلى التوحيد الصادق:

توحيد: أشهد أن لا إله إلا الله.

توحيد: المشاهدة.

توحيده: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾.

ولكنها مهما تعددت، فإنها تعود دائمًا إلى التوحيد: إن التوحيد نهايتها.

ويشبهون الأمر بالدائرة ومركزها.

إن الطرق هى الخطوط التى تبدأ من محيط الدائرة لتنتهى بالمركز، وهى إذا تباعدت قليلًا أو كثيرًا فى المبدأ، فإنها تقترب من بعضها كلما اقتربت من المركز، فإذا وصلت إلى المركز اتحدت، والمركز هو التوحيد.

ولكن الشبلى لم يعرف التصوف بتعريف واحد، وإذا كان التعريف الذى ذكرناه هو أكملها وأتمها، فإن له تعريفات أخرى توضح وتفسر فى زاوية الطريق على الخصوص، وهى، فى صورة أدق. توضح الطريق من الجانب الأخلاقى على الأخص. ومن ذلك ما رواه أبو الحسن على بن

المثنى العنبرى، قال: سألت أبا بكر الشبلى جحدر بن دلف عن التصوف فقال:

«التصوف ترويح القلوب بمراوح الصفاء، وتجليل الخواطر بأردية الوفاء، والتخلق بالسخاء، والبشر فى اللقاء».

وهذه كلمات فى الجانب الأخلاقى، أى فى جزء من أجزاء الطريق، وهى كلمات مأخوذة من الأحاديث النبوية الشريفة، ومتناسقة مع القرآن الكريم، ومما يتناسب معها من القرآن والسنة - وهى لا شك مأخوذة منها - ما يلى:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين﴾.

﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾.

﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾.

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً﴾.

﴿وأنفقوا من مال الله الذى آتاكم﴾.

﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾.

أما الأحاديث فمنها قوله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه النعمان ابن بشير، رضى الله عنه:

«الحلال بّين والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى، يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله فى أرضه محارمه، ألا وإن فى الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب[1]».

وفيما أخرجه ابن أبى حاتم بسنده، عن عبد الله بن مسعود، قال:

«تلا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، هذه الآية:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾. قالوا يارسول الله:

ما هذا الشرح؟ قال:

«نور يقذف به فى القلب. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة تعرف؟

---

(١) متفق عليه.

قال: نعم. قالوا: وما هي؟ قال:

«الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت».

وعن جابر – رفعه – سئل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام أفضل؟

قال: «من سلم المسلمون من لسانه ويده».

قال: فأي الإيمان أفضل؟

قال: الصبر والسماحة[1]».

قال: فأي المؤمنين أكثر إيمانًا؟

قال: «أحسنهم خلقًا».

قال: فأي الجهاد أفضل؟

قال: «من عقر جواده وأهريق دمه»

قال: فأي الصلاة أفضل؟

قال: «طول القنوت».

(١) وفيما رواه جابر: سئل رسول الله، صلى الله عليه وسلم: مايين الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة». رواه الحارث وأخرجه ابن حبان في صحيحه.

قال: فأي الصدقة أفضل؟

قال: «جهد المقل».

قيل: فأي الهجرة أفضل؟

قال: «أن تهجر ما حرم الله عليك[1]».

وعن أبي هريرة – رفعه – قال: قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق[2]».

وعن مطرف بن عبد الله بن الشخير، قال:

أتى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، رجل فقال: أي الإيمان أفضل؟

قال: «الخلق الحسن».

فأعاد عليه فقال: «الخلق الحسن».

فأعاد عليه الثالثة أو الرابعة، فإما أقامه وإما أقعده، قال:

«أن تلقى أخاك وأنت طليق» ثم مازال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يحسن الخلق الحسن، ويقول: «هو من الله».

(١) أخرجه الإمام مسلم، والترمذي باختصار.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة.

ويقبح الخلق السوء ويقول: هو من الشيطان»، ثم قال:

«ألا تنظرون إلى حمرة عينيه، وانتفاخ أوداجه؟[1]».

ومن تعاريف الشبلى فى هذا الجانب ما يقوله:

التصوف: التآلف والتعاطف.

وهو تعريف مأخوذ - أيضًا - من القرآن والسنة، ولعل مصدره ما يقوله الله سبحانه:

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض﴾.

وقوله:

﴿ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾.

وقوله:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾.

وقول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا».. ويقول:

«ترى المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى».

(١) رواه الحارث مرسلا.

وإذا اتجهنا إلى الأخلاق فى ناحيتها الروحية الدقيقة التى تتصل بالمحاسبة والمراقبة، فإن الشبلى يعرف التصوف بما يلى:

«التصوف ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك».

ومصدر هذا التعريف:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون، وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن، ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن، ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن، أوآبائهن أوآباء بعولتهن أو أبنائهن، أو أبناء بعولتهن، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن، أوبنى أخواتهن أونسائهن أوماملكت أيمانهن أوالتابعين غير أولى الإربة من الرجال أوالطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن، وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾.

ويعرف الشبلى التصوف بتعريف هو وصف لحال الصوفى، يشرحه فى بعض أحيانه: «التصوف: لا حال يقل، ولا سماء يظل».

ومعناه أن الصوفى لا يثبت على حال، وذلك أنه فى ترق باستمرار، فإذا ثبت على حال فقد وقف وأصبح كالماء الآسن لأنه لا يجرى، يقول القشيرى فى رسالته:

والحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب، ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج.

وقالوا: الأحوال كاسمها، يعنى أنها كما تحل بالقلب ، تزول فى الوقت.

سمعت الأستاذ أبا على الدقاق رحمه الله، يقول فى معنى قوله، صلى الله عليه وسلم: «إنه ليغان على قلبى حتى أستغفر الله تعالى فى اليوم سبعين مرة».. إنه كان، صلى الله عليه وسلم، أبدًا فى الترقى، من أحواله، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها، فربما حصل له ملاحظة إلى ما ارتقى عنها، فكان يعدها «غيناً» بالإضافة إلى ماحصل فيها، فأبدًا كانت أحواله فى التزايد.

ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها:

وهو لا يسكن إلى ما تتروح به النفوس فى هذا العالم، وهذا معنى: «لا سماء يظل».

والمعنى: أنه باستمرار فى جهاد متصل، وفى سعى للقرب من الله سبحانه، لا يقف فى جهاده، ولا يسكن إلى الراحة، يقول السهروردى:

وأقوال المشايخ فى ماهية التصوف تزيد على ألف، ويطول نقلها.

ونذكر ضابطًا يجمع جل معانيها، فإن الألفاظ – وإن اختلفت – متقاربة المعانى، فنقول:

«الصوفى: هو الذى يكون دائم التصفية، لا يزال يصفى الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس».

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوام الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها، أدركها ببصيرته النافذة، وفر منها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه، قال الله تعالى:

﴿كونوا قوامين لله شهداء بالقسط﴾.

وهذه القوامية لله على النفس هى التحقق بالتصوف، قال بعضهم:

«التصوف كله اضطراب، فإذا وقع السكون فلا تصوف».

والسر فيه أن الروح مجذوبة إلى الحضرة الإلهية، يعنى أن روح الصوفى منطلقة منجذبة إلى مواطن القرب، وللنفس بوضعها رسوب إلى عالمها وانقلاب على عقبها.

ولابد للصوفى من دوام الحركة بدوام الافتقار ودوام الفرار وحسن التفقد لمواقع إصابات النفس.

ومن وقف على هذا المعنى يجد فى معنى «الصوفى» جميع المتفرق فى «الإشارات».

ونعود فنقول: إن تعريف الشبلى للتصوف بأنه:

«بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده».

هو التعريف الأكمل، وبقية التعريفات توضيح وتفسير.

ولكن التعريف الكامل للتصوف هو حياة الشبلى نفسها: إنها تعريف واقعى واضح للتصوف..

ومع ذلك فإنه ينبغى - وقد عرفنا التصوف عند الشبلى - أن نبدأ - معه فى رسم الطريق.

الفصل الثالث

الطريق الصوفى عند الشبلى

الطريق الصوفى عند الشبلى

التوبة:

وأول الخطوات فى طريق الصوفية، إنما هى التوبة الصادقة، والتوبة الصادقة ترتكز على شرطين أساسيين:

أولها : الانفصال التام عن المعاصى فى الحاضر.

وثانيها: العزم المؤكد على أن لا يأتى الإنسان الذنب فى المستقبل، ثم هى تختلف بعد ذلك بالنسبة للناس، بحسب مواقعهم، وذلك أن من توبة المدرس مثلاً أن يكون مخلصًا فى تدريسه، وكذلك الموظف يكون أمينًا فى علمه، وتوبة الحاكم أن يسير فى حكمه بحسب الشرع الشريف، فإذا حكم بدون ذلك لا يكون تائبًا – وتوبة من بيده – إقامة الحدود، إنما هى فى أن يأمر بإقامة الحدود وإلا لا تقبل توبته.

وكيف يتأتى أن يتوب مشرع، مثلاً، وهو يشرع بغير ما أنزل الله؟

وكيف يتأتى أن يتوب قاض وهو يحكم بغير ما أنزل الله؟

وكيف يتأتى أن يتوب وال وهو – مع أن أمر ولايته بيده – يسير بها فى جو من قوانين الغرب أو الشرق؟

إن التوبة تثمر الاستقامة إذا صدقت، وتأمل التعبير القرآنى الكريم، حينما يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله، فيقول له:

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك﴾.

لقد أمر الله تعالى بالاستقامة وأمر التائبين بها، فإذا لم تثمر التوبة الاستقامة، فلا توبة، والاستقامة التزام الأمر فى التشريع والأخلاق، ونظام المجتمع، واجتناب النهى فى كل ذلك.

والاستقامة، التى هى ثمرة التوبة النصوح، تتضمن الإخلاص، ولن تكون توبة إذا لم يتوافر الإخلاص، ولن يتقبل الله العمل إذا لم يتوافر الإخلاص، وهو سبحانه القائل:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

فكل ما ليس بخالص لا يكون لله فيه نصيب.

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده، لا شريك له، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض.

ولقد سأل معاذ، رضى الله عنه، وهو مسافر إلى اليمن، رسول الله، صلى الله عليه وسلم، النصيحة، فقال له:

اخلص دينك يكفك العمل القليل.

والإخلاص جوهره إخلاص النية قبل العمل، وفى أثناء العمل، وبعد العمل، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أوامرأة يتزوجها، فهجرته إلى ماهاجر إليه».

وتوبة الصوفى لها – مع كل هذه القواعد، فى مجرى العادة: الوضع الطبيعى عند الصوفية، وهو: أن تكون على يد شيخ.

وهى بذلك تأخذ أبعاد البيعة، فهى توبة، وهى بيعة، أو هى توبة متضمنة فى البيعة!

وأول بنود البيعة هو:

«ألا نشرك بالله شيئًا».

ويهتم الصوفية اهتمامًا كبيرًا بهذا البند. ويتعمقون فيه تعمقًا لا يجارهم فيه غيرهم، ومن ذلك مثلاً ما يقوله الشبلى:

«الأسرار! الأسرار! صونوها عن الأغيار». ا هـ.

إن القلب بيت الله، وإذا كان لله بيوت فى الأرض هى المساجد، فإن لله بيوتًا فى بنى الإنسان هى: قلوبهم؟

ويحرص الصوفية أن تكون بيوت الله فيهم، لا يسكنها إلا هو سبحانه،

ومن أجل ذلك يحاولون – ابتداء من لحظة البيعة – أن يملأ الله قلوبهم!

قال الشبلى مرة، وقد أخذه وجد شديد:

«ما أحد يعرف الله».

قيل: وكيف؟

قال:

«لو عرفوه لما اشتغلوا بسواه!»

والانسان يمكنه القيام بعمله العادى، وبالجهاد فى سبيل الله، وهو فى كل ذلك مع الله، وهكذا كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مناضلاً فى الحياة: جهادًا وتربية للصحابة. وعناية بكل صغيرة وكبيرة من أمر الدعوة. وهو مع كل ذلك مع الله، إن الصوفى يعمل فى سبيل الله، ولكنه فى عمله لا يلاحظ نفسه، يقول أبو بكر محمد بن عبد الله الرازى: سمعت أبا بكر الشبلى يقول:

«ما أحوج الناس إلى سكرة».

فقيل: أى سكرة؟ فقال:

«سكرة تغنيهم عن ملاحظة أنفسهم، وأفعالهم وأحوالهم، والأكوان وما فيها!»

وكان يقول:

«ليس يخطر الكون ببالى، وكيف يخطر الكون ببال من عرف المُكوِّن؟!»

أما أهل البلاء – فيما يرى الشبلى – فإنهم: «أهل الغفلة عن الله!»

لقد سئل، رضى الله عنه، عن حديث:

إذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا ربكم العافية؟» فقال:

«هم أهل الغفلة عن الله تعالى؟!»

ويقول الشبلى:

«مساكين هؤلاء المماليك: نظروا بعيونهم إلى الملكوت المخلوق، ورضوا بالجنان المخلوقة، فبقوا معها خالدين فيها، وأما الملوك فلم يرضوا بها، فنظروا بقلوبهم إلى مالك الملوك. فبقوا معه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر».

وسأله رجل عن مقام «التوبة» قائلا:

«يطرق سمعى من كتاب الله مايحدونى على ترك الأشياء، والإعراض عن الدنيا، ثم أرد إلى نفسى وإلى أحوالى، وإلى الناس، ثم لاأبقى على هذا، ولا على هذا، وأرجع إلى الوطن الأول مما كنت عليه من سماعى القرآن.

فقال له الشبلى:

يقول الله: «ما طرق سمعك من القرآن فاجتذبك به إلى فهو عطف منى عليك، ولطف منى بك!».

وما أردك به إلى نفسك فهو شفقة منى عليك، لأنك لم يصح لك التبرؤ من الحول والقوة فى التوجه إلى!».

ويصل الأمر بالشبلى أن يقول:

طرفة عين فى غفلة عن الله لأهل المعرفة شرك».

هذا النمط من التوحيد الذى يبدأ مع المريد، منذ البداية، والذى تنتهى التوبة الصادقة إلى استشرافه. والذى هو طابع الاستقامة: هو البداية للتصوف، وهو النهاية أيضًا:

بدؤه معرفته: [واحدًا]!

ونهايته: توحيده!.

وكما تثمر التوبة الصادقة الاستقامة، وكما تثمر الاخلاص المتضمن فى الاستقامة، فإنها تثمر العمل.

ويقول الإمام الشبلى:

«لسان العمل أفصح من لسان العلم».

وما من شك فى أن العلم والعمل ضروريان، ولكن العلم إذا لم يثمر العمل، فإنه لا يكون علمًا نافعًا.

والشبلى، بمجرد توبته جد فى العبادة. واجتهد فيها اجتهادًا كبيرًا، إن المؤرخين يقولون عنه:

«وكانت مجاهداته فى بدايته فوق الحد».

ولكن فكرة التوحيد مسيطرة السيطرة الكاملة فى كل خطوات الصوفى، وهى التى جعلته يقول:

«من طلبه به تعالى صح به توحيد، ومن طلبه بنفسه لم يصح له توحيد».

ويقول:

«من طلب الحق بالمجاهدات فهو بعيد عن وصوله إلى مطلوبه، ومن طلبه به تعالى وصل إليه»، ثم أنشد:

أيها المنكح الثريا سهيلا — عمرك الله: كيف يجتمعان؟
هى شامية إذا ما استهلت — وسهيل إذا استهل يمانى!

وسئل الشبلى: هل يبلغ الإنسان بجهده إلى شىء من طرق الحقيقة أو الحق؟ فقال:

«لابد من الاجتهاد والمجاهدة، لكنهما لا يوصلان إلى شىء من الحقيقة لامتناعها عن أن تدرك بجهد أو اجتهاد، وإنما هى مواهب، يصل العبد

إليها بإيصال الحق تعالى لا غير. ولولا أنه تعالى بدأهم بالمحبة، وهداهم. لما أحبوه!».

لابد من الاجتهاد والمجاهدة، والشبلى يقول فى وضوح:

«ليس لمريد فترة».

أى: أن المريد فى مجاهدة دائمة، وكما يقول الجنيد عن التصوف:

«إنه عنوة لا صلح فيها».

إنه جهاد مستمر، ولكن:

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته، مازكى منكم من أحد أبدًا﴾.

مجاهدة وخوف من الله، وأمل فى القبول، ورجاء فى الرضا!.

ومع جد الشبلى فى الطاعات على وجه العموم، فإنه كان - حينما يدخل شهر رمضان - جد فى الطاعات أكثر، ويقول:

«هذا الشهر عظمه الله، فأنا أقوم بتعظيمه».

وكان يقتدى فى ذلك برسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذى كان يجد فى الطاعات على وجه العموم، حتى إذا دخل شهر رمضان جد فوق جده، حتى إذا دخلت العشر الأواخر من رمضان - كما تقول السيدة عائشة، رضى الله عنها:

«... أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر».

ولسان العمل، الذى هو أفصح وأدل على التقوى من لسان العلم، يتضمن:

الذكر:

والصوفية يهتمون بالذكر اهتمامًا بالغًا، ومن كلماتهم فى ذلك: يقول سيدى أبو مدين التلمسانى، رضى الله عنه:

«من دامت أذكاره صفت أسراره، ومن صفت أسراره كان فى حضرة الله تعالى قراره».

وقال الإمام القشيرى:

«من خصائص الذكر أنه غير مؤقت بوقت، فما من وقت إلا مطالب به: إما وجوبًا أو ندبًا، بخلاف غيره من الطاعات، وفى ذلك تفضيله على سائر الأعمال...»

وما من شك فى أنه مفضل على أعمال النفل، إذ أن الفروض: فروض، وهى لا يستغنى عنها بشىء آخر، وهذا هو ما قصده المؤلف رضى الله عنه.

وجاء فى معاهد التحقيق كذلك - فى معنى قوله تعالى:

﴿فاذكرونى أذكركم﴾.

أى:

اذكرونى باللسان، أذكركم بتنقيح الجنان!

اذكرونى بالأسرار، أذكركم بترادف المنح والأسرار!

اذكرونى بالحضور، أذكركم بالفتح والسرور!

اذكرونى بالتعظيم، أذكركم بالفوز العظيم!

اذكرونى بالاحترام، أذكركم بالكرامة والإكرام!

اذكرونى بالهمة والاهتمام، أذكركم بالحكمة والإلهام!

اذكرونى بالقلوب، أذكركم بكشف أسرار الغيوب!

اذكرونى بالأركان، أذكركم بالمحبة والعرفان». اهـ.

والصوفية حين يهتمون بالذكر، فإنما يتابعون فى ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو، صلوات الله وسلامه عليه، يتابع توجيه القرآن الكريم وهو:

﴿فاذكرونى أذكركم﴾.

ولقد حث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير فقال سبحانه:

﴿واذكر ربك فى نفسك تضرُّعًا وخيفة، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين﴾.

وحث الله سبحانه وتعالى على الذكر الكثير، فقال آمرا:

﴿يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا، وسبحوه بكرة وأصيلًا﴾.

ووصف الله سبحانه وتعالى أصحاب العقول المستنيرة التى رضى عنها، لأنها اهتدت بهديه، فقال سبحانه مادحًا لهم:

﴿إن فى خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، لآيات لأولى الألباب﴾.

﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلًا، سبحانك فقنا عذاب النار﴾.

﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار﴾.

﴿ربنا إننا سمعنا مناديًا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾.

﴿ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾.

ويصف الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين بصفات يرضى عنها اختتمها بقوله:

﴿والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾.

والأمر بالذكر كثير فى القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى:

﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم﴾

ويقول ابن عباس - رضى عنهما - فى هذه الآية:

«أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية!»

ويقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ولذكر الله أكبر﴾

ويقول ابن عباس - رضى الله عنهما - عن هذه الكلمة القرآنية الكريمة:

إن لها وجهين:

أحدهما: إن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه.

والآخر: إن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه.

ولقد تحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً عن الذكر: مادحاً وآمراً.

عن أبى هريرة - رضى الله عنه فيما رواه الإمام مسلم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير فى طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان، فقال:

«سيروا: هذا جمدان، سبق المفردون».

قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟

قال: «الذاكرون الله كثيراً».

وذكر هذا الحديث الترمذى وفيه:

يا رسول الله: وما المفردون؟

قال: المستهترون بذكر الله، يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون الله يوم القيامة خفافاً.

وكلمة: «المفردون» كما يذكر صاحب كتاب: «الترغيب والترهيب» بفتح الفاء وكسر الراء.

و «المستهترون» - بفتح التائين هم المولعون بالذكر، المداومون عليه، لا يبالون ما قيل فيهم، ولا ما فعل بهم.

وعن أبى موسى رضى الله عنه - فيما رواه البخارى - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مثل الذى يذكر الله - ربه - والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت».

وعن عبد الله بن بسر - رضى الله عنه، فيما رواه الحاكم بإسناد صحيح - أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ، فأخبرنى بشىء أتشبث به، قال:

«لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله».

ويحدث الصحابى الجليل «معاذ بن جبل»، رضى الله عنه، فيقول، فيما رواه الطبرانى وغيره:

إن آخر كلام فارقت عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن قلت:

أى الأعمال أحب إلى الله؟

قال:

«أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله»

ومن أجمل الوصايا التى أوصى بها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنفسها - ووصاياه صلوات الله وسلامه عليه كلها جميلة نفيسة - وصيته لأم أنس حينما قالت له: يا رسول الله: أوصنى:

قال:

«اهجرى المعاصى، فإنها أفضل الهجرة، وحافظى على الفرائض، فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله، فإنك لا تأتين بشىء أحب إليه من كثرة ذكره».

وأن من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله:

«رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله».

وروى البيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: قال الله عز وجل:

«من شغلة ذكرى عن مسألتى، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

قال الإمام الصاوى:

وينبغى للإنسان أن يذكر الله كثيراً، لقوله تعالى:

﴿والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً﴾

ولا يلتفت لواش، ولا رقيب، لقول السيد الحفنى خطاباً للعارف بالله تعالى أستاذنا الدردير:

يـامبتغى طـرق أهـل الله والتسليـك ... دع عنـك أهل الهوى تسلم من التشكيك

(اذكـرونى) لـرد المعـترض يكفيـك ... فـاجعـل سلاف الجلالـة دائـماً فى فيـك

والشبلى – على غرار القوم – يهتم بالذكر اهتماماً بالغاً، وهو يقيم الاعتبار لذكر القلب، وفى ذلك يقول:

«ليس للأعمى من الجوهرة إلا لمسها».

«ولا للجاهل من الله إلا ذكره باللسان».

وسئل الشبلى عن أقرب أصحابه إليه، من يكون؟ فقال:

«ألهجهم بذكر الله، وأسرعهم مبادرة لرضاه».

ويعتبر الشبلى الذكر علاجًا. إن أبا حاتم الطبرى الصوفى يقول:

سمعت الشبلى يقول:

«ذكر الله على الصفاء، ينسى العبد مرارة البلاء».

والشبلى فى ذلك يتابع القرآن الكريم فى توجيهاته فى الذكر. يقول سبحانه وتعالى:

﴿فاصبر على ما يقولون، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى﴾.

ويقول سبحانه:

﴿قال اهبطا منها جميعًا، بعضكم لبعض عدو، فإما يأتينكم منى هدى، فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً، ونحشره يوم القيامة أعمى﴾.

ومع مكانة الذكر الكبرى فإنه، فيما يروى الشبلى:

«ليس من استأنس بالذكر، كمن استأنس بالمذكور».

وهذه الفكرة يكررها الشبلى فى صورة أخرى، فقد سئل:

متى تستريح من الذكر؟

فأجاب:

«إنى لا أستريح إلا إذا دخلت حضرة الشهود، لأنها لا ذكر فيها

استغناء عنه بالشهود، لأن الذكر إنما هو للغائب!».

ويقول: إن الذكر إنما يكون مع الحجاب: لأنه دليل، فإذا شهد المدلول فقد سقط الوقوف عند الدليل، بل سقط عن شهود الدليل ومروره على الخاطر.

وإذا استغرق الإنسان فى الذكر وجد حلاوته، وقاده الذكر إلى كثير من الأنوار والفيوضات، ومما يقوده الذكر إليه:

الزهد:

ولقد سئل الشبلى عن الزهد فقال:

تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء.

وهذه الكلمة فى إيجازها الدقيق تلخص موقف الصوفية فى الزهد، إنها تسير فى نسق مع قوله تعالى:

﴿لكى لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾.

وهى لا تعنى عدم امتلاك الأشياء، وإنما تعنى أن لا يتعلق القلب بها.

ولقد سبق أن قلنا غير مرة إن الزهد فى الدنيا لا يعنى التجرد المتعمد منها، وإنما يعنى أن لا تستعبد الدنيا الإنسان، ولو كان الإسلام يحث على التجرد من الدنيا، لما شرع نظام الزكاة، ونظام الزكاة هو أن تملك وتزكى

عما تملك، أى تخرج مما تملك ولما شرع الإسلام للبيع والشراء وكتابة الدين والميراث والسلم والمضاربة، وغير ذلك من أمور الثروة.

ولقد كان الكثير من الصوفية من الأغنياء يملكون الثروات ويتصرفون فيها كوكلاء لله عليها، وكثيرًا ما يدعون الله بأن يغنيهم ولا يكتفون بذلك بل يدعونه - سبحانه - أن يجعلهم سبب الغنى لأوليائه.

ولقد كان من دعاء أبى الحسن الشاذلى فيما يتعلق بالدنيا ممثلة فى المال والثروة:

اللهم اجعلها فى أيدينا ولا تجعلها فى قلوبنا.

وكان من دعائه، رضى الله عنه:

اللهم وسع على رزقى فى دنياى، ولا تحجبنى بها عن أخراى.

ولقد كان الكثير من الصحابة رضوان الله عليهم من ذوى الثروات الضخمة، وكانت هذه الثروات فى أيديهم ولم تكن فى قلوبهم، وكانوا يبذلونها سخية بها نفوسهم فى سبيل الله: فيجهز بعضهم جيش العسرة، ويحفر بئر رومة، ويتصدق آخرون فى سبيل الله بالغالى والنفيس، ويؤثرون الله على كل شىء.

ومن جميل ما نذكره فى ذلك، ما يتحدث عنه القرآن الكريم من آثار الاستغفار التى تعم الدنيا والآخرة، يقول تعالى:

﴿ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾

ويقول:

﴿فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا، يرسل السماء عليكم مدرارًا، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارًا﴾.

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب[1]».

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة[2]»:

وما يذكر القرآن من آثار التقوى في مثل قول الله سبحانه:

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

وقوله:

﴿إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم، إنهم كانوا قبل ذلك محسنين﴾.

---

(١) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه.

(٢) رواه البخاري.

وقوله:

﴿إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

وعن أنس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قرأ:

﴿هو أهل التقوى وأهل المغفرة﴾.

قال: قال ربكم:

«أنا أهل أن أتقى، فمن اتقاني فأنا أهل أن أغفر له[1]»

والواقع أن الله سبحانه وتعالى لم يحتجب عن خلقه - كما يقول الشبلي - إنما الخلق احتجبوا عنه بحب الدنيا، أي باستعبادها لهم، وبجريهم وراءها وتكالبهم عليها..

وإن في الجنة درجات للغني الشاكر:

وحينما يستغرق الإنسان في الذكر، تقوده أنواره إلى:

التوكل:

ويقول الشبلي عن التوكل:

«يقول أحدهم: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، لو توكل عليه رضي بفعله».

---

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي.

والواقع أن التوكل يشمل التسليم ويشمل التفويض:

والتوكل متضمن بصورة طبيعية فى الإيمان الصادق بـ «لا إله إلا الله»، وهو - إذن - من صميم الإيمان:

ويقول الإمام سهل بن عبد الله التسترى:

العمل سنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

والتوكل، حاله صلى الله عليه وسلم.

فمن طعن فى العمل فقد طعن فى السنة.

ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان.

وكلمة سهل هذه إنما تعنى أن العمل والتوكل متلازمان، وذلك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يعمل طيلة حياته: مكافحًا ومجاهداً، وهاديًا ومرشداً، وكان لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ودبر أمرها، وقدر لها ما يلزمها، وأحكم النظر فيها، وهو مع كل ذلك، فى كل لحظة من لحظات حياته متوكل على الله تعالى، وهو، صلوات الله وسلامه عليه، القدوة والأسوة والمثل الأعلى لكل الصوفية:

ومن أنوار الذكر:

الخوف والرجاء:

ولقد سئل الشبلى عن الخوف، فقال:

أن تخاف أن يسلمك إليك.

وسئل عن الرجاء، فقال:

ترجو أن لا يقطع بك دونه

وإجابات الشبلى فى ذلك، إجابات ربانى، تعلق كيانه كله بالله تعالى.

ومن أنواع الذكر:

المحبة:

والآن نكتب عن صراط الأولياء، على حد تعبير الشبلى.

وصراط الأولياء: المحبة، إنها صراطهم الدائم حين يصلون إليها.

تلهج بها ألسنتهم ، وتمتلىء بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس فى العواطف درجات، ومنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين.

ومهما جمح بالإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه، فإنه فى الأوضاع الشرعية التى التزمها الصوفية له شروط وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونها.

وقبل أن نبدأ فى الحديث عن المحبة عند الشبلى ، نحب أن نقف وقفة ضرورية فى تصوير هذا الموضوع من كتاب الله وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، ومن كلام علمائنا الأجلاء فيه.

يقول الله تعالى فى حديث قدسى:

«من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

وفى هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه فى قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه...

أولياؤه هم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادى: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب»

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه: وأول خطوة فى هذا الطريق:

«أداء مافترضته عليه».

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول - شرط القرب منه سبحانه - وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله..

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا كما يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل...

لابد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لمهملها إلى القرب من الله تعالى من سبيل . ومع أداء الفرائض - فى جو القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله تعالى.

«وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه».

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذى ذكره الله، سبحانه وتعالى، فى الحديث القدسى.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطًا محكمًا بين محبة الله سبحانه واتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، متناسقين فى ذلك مع توجيه الله سبحانه.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾.

وهذا الربط معناه الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - مع توفيقه - هى العمل ، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراز:

وبلغنا عن الحسن البصرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا على عهد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حبًا شديدًا ، فجعل الله تعالى لمحبته علمًا وأنزل عز وجل»:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾.

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى هديه وزهده وأخلاقه، والتأسى به فى الأمور، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبهجتها، فإن الله عز وجل جعل محمدًا، عليه الصلاة والسلام علمًا ودليلاً وحجة على أمته.

ومن صدق المحبة لله تعالى إيثار محبة الله عز وجل فى جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ فى الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحبوب، والتجارى مع طرقاته فى كل الأمور، والتقرب إليه بكل حيلة، والهرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

أما عن صلة المحبة بالإيمان، فإن الإمام الغزالى يقول:

«وقد جعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الحب لله من شرط الإيمان

فى أخبار كثيرة:

إذ قال أبو رزين العقيلى: يارسول الله، ما الإيمان؟

قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفى حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين».

وفى رواية: ومن نفسه.

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لايهدى القوم الفاسقين﴾.

«وإنما أجرى ذلك فى معرض التهديد والإنكار». ا.هـ.

ومن أجمل تعبيرات المحبين عن شعورهم ، ما يقوله يحيى بن معاذ:

«إلهى إنى مقيم بفنائك، مشغول بثنائك، صغيرًا أخذتنى إليك، وسربلتنى بمعرفتك، وأمكنتنى من لطفك، ونقلتنى فى الأحوال، وقبلتنى فى الأعمال: سترًا وتوبة، وزهدًا وشوقًا، ورضا وحبًا.. تسقينى من حياضك، وتمهلنى فى رياضك ، ملازمًا لأمرك، ومشغوفًا بقولك، وهاطر شاربى، ولاح

طائرى، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرًا. وقد اعتدت هذا منك صغيرًا، فلى ما بقيت حولك دندنة، وبالضراعة إليك همهمة، لأنى محب، وكل محب بحبيبه مشغوف، وعن غير حبيبه مصروف». اهـ.

وبعد: فإن ثمرة محبة الله تعالى هى ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم﴾.

وهى أيضًا أن يجد حلاوة الإيمان. يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ – أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ – وأن يحب المرء، لا يحبه إلا لله.

٣ – وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار.

ولقد سمع الناس كثيرًا عن عاطفة الحب الإلهى عند السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعى.

ونحب أن نضع بجوار هؤلاء شخصية الإمام الشبلى!

وإذا كان الجم الغفير من الشعب الإسلامى قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تتح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن

الحب عند الشبلى، ولكن المؤرخين لحياة أبى بكر الشبلى يتحدثون عن حبه العميق وهيامه المستمر.. ومنهم، مثلًا، صاحب الحلية الذى يقول عنه:

ومنهم المجتذب الولهان، والمستلب السكران، الوارد العطشان: اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتهن ممتلأ ريان: أبو بكر الشهير بالشبلى.

وسيرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تعريفها، وكل ما يحيط بها منغمس فى جو من الاتباع لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، وشعار من التزام الشريعة الغراء!

وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله، صلى الله عليه وسلم، أساسًا لكل تصرفاتهم.

أما عن أسبابها فإنها، فيما يرى الشبلى نتيجة «الهمة»؛ والهمة عند الصوفية هى التشمير والجد فى العبادة.

ويقول الشبلى:

«إن من ملت همته، ضعفت محبته».

فمع الهمة إذن صعودًا وهبوطًا تكون المحبة صعودًا وهبوطًا.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين، فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال فى حزن:

كفى حزنًا بالواله الصب أن يرى   منازل من يهوى معطلة قفرًا

وسئل مرة عن أعجب شيء. فقال:

«من عرف الله ثم عصاه».

ولايسر المحب شيء أكثر من موافقة من يحب:

قال أبو القاسم عبد الله بن على البصرى: قال رجل للشبلى:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته». وأنشد:

أسر بمهلكى فيه لأنى   أسر بما يسر الألف جدا
ولو سئلت عظامى عن بلاها   لأنكرت البلى وسمعت جحدا
ولو أخرجت من سقمى لنادى   لهيب الشوق بى يسأله ردا

ولابد للمحب من الأدب الكامل فى القول، فضلا عن السلوك.

ويقول الشبلى:

الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب!

والمحبة رق للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رق العبودية ورق المحبة. فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبلى - وسئل - فقيل: ما الفرق بين رق العبودية ورق

المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حرًا، وعبد كلما أعتق ازداد رقًا.

ثم أنشأ يقول:

لتحشرن عظامى بعد إذ بليت   يوم الحساب وفيها حبكم علق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبلى ما هى؟

إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكتمان الحال مع بذل الجهد فى المجاهدة، ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضله:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾.

ويقول محمد بن أحمد بن يعقوب الوراق: سمعت الشبلى.

وسئل عن المحبة، فقال: المحبة الفراغ للحبيب، وترك الاعتراض على الرقيب.

ويقول الشبلى أيضاً:

المحبة كأس لها وهج، إن استقرت فى الحواس قتلت، وإن سكنت فى النفوس أسكرت، فهى سكر فى الظاهر. ومحبة فى الباطن.

ولقد سئل الشبلى، هل تظهر صحة الوجد على الواجدين؟

فقال: نورًا مقارنًا لنيران الاشتياق، فيلوح على الهيكل آثارها.

أما الأنس فإنه - كما يقول الشبلى وحشتك فى جميع مايقطعك عنه واستغراقك فيه:

[٣٣كواكب]

ويتحدث الشبلى بكلمة عن المحبة الكاملة، فيقول فى عمق عميق:

المحبة الكاملة أن تحبه من قبله.

وكما كان الشبلى يعبر عن حبه وهيامه بذكره وتهجده، وقيامه وصيامه، فإنه كان يعبر عن ذلك بقوله، وأكثر تعبيراته بالقول إنما كان بالشعر سواء أكان من نظمه هو أم نظم غيره.

والآن نسوق مجموعة من تعبيراته بالشعر دون أن نلتزم فيها ترتيباً معيناً، ونأسف إذا لم يصلنا كل ما قال فى ذلك.

يقول أبو الفرج محمد بن عبيد الشاعر المعروف بالبارد:

سمعت الشبلى ينشد:

ليس تخلو جوارحى منك وقتاً ... هى مشغولة بحمل هواك

ليس يجرى على لسانى شىء ... -علم الله ذا - سوى ذكراك

وتمثلت حيث كنت بعينى ... فهى إن غبت أو حضرت تراك

[تاريخ بغداد ص ٣٩٠ - ٣٩١]

ويقول عبد الله بن موسى السلامى، سمعت الشبلى يقول:

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة ... وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى

وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام على القلب بالخفقان

فلما أرانى الوجد أنك حاضرى ... شهدتك موجوداً بكل مكان

فخاطبت موجودًا بكل تكلم ... ولاحظتُ معلومًا بغير عيان

وحج، فلما رأى الكعبة أغمى عليه، ثم أنشد:

هذه دارهم وأنت محب ... ما بقاء الدموع فى الآماق

وقيل له: ما بال الرجل يسمع الشىء ولا يفهم معناه، فقال:

رُبَّ ورقاء هتوف فى الضحى ... ذات شجو صدحت فى فنن

ذكرت إلفاً ودهرًا صالحًا ... فبكت حزناً وهاجت حزنى

فبكائى ربما أرقها ... وبكاها ربما أرقنى

ولقد تشكو فما أفهمها ... ولقد أشكو فما تفهمنى

غير أنى بالجوى أعرفها ... وهى أيضًا بالجوى تعرفنى

وحكى الخطيب، فى تاريخه، قال أبو الحسن التميمى:

دخلت على أبى بكر فى داره يومًا وهو يهيج ويقول:

على بعدك لا يصبر ... من عادته القرب

ولا يقوى على هجر ... ك من تيمه الحب

فإن لم ترك العين ... فقد يبصرك القلب

وذكر الخطيب أيضًا فى ترجمة أبى سعيد إسماعيل بن على الواعظ أن أبا سعيد قال:

أنشدنا طاهر الخثعمى، قال: أنشدنى الشبلى لنفسه:

مضت الشبيبة والحبيبة فانبرى   دمعان فى الأجفان يزدحمان
ما أنصفتنى الحادثات رميننى   بمودعين وليس لى قلبان

[ص ٤٠: الوفيات]

وأخبر أبو بكر أحمد بن على بن يزداد القارئ، قال: سمعت زيد بن رفاعة الهاشمى قال: سمعت أبا بكر الشبلى ينشد فى جامع المدينة يوم الجمعة والناس حوله:

يقول خليلى كيف صبرك عنهم   فقلت وهل صبر فيسأل عن كيف
بقلبى هوى أذكى من النار حره   وأصلى من التقوى، وأمضى من السيف

وأنشد أبو بكر الرازى ما أنشده الشبلى:

وإنى وإياه لفى الحب صادق   نموت بما نهوى جميعًا ولا نبدى

وقد جاء رجل إلى الشبلى فقال: كم تهلك نفسك بهذه الدعاوى ولا تدعها؟ فأنشأ يقول متمثلاً:

إنى وإن كنت قد أسأت بى اليو   م لراج للعطف منك غدًا

أستدفع الوقت بالرجاء وإن   لم أر منك ما أرتجى أبدًا
أغرر نفسى بكم وأخدعها   نفسى ترى الغى فيكم رشدًا

وكان عبد الله بن محمد الدمشقى يقول: كنت واقفًا على حلقة الشبلى فى جامع المدينة، فوقف سائل على حلقته وجعل يقول:

يا الله، ياجواد! فتأوه الشبلى وصاح، فقال:

كيف يمكننى أن أصف الحق بالجود، ومخلوق يقول فى شكله:

تعود بسط الكف حتى لو أنه   ثناها لقبض لم تجبه أنامله
تراه - إذا ما جئته - متهللا   كأنك تعطيه الذى أنت سائله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله
هو البحر من أى النواحى أتيته   فلجته المعروف، والجود ساحله

ثم بكى، وقال: بلى يا جودًا، فإنك أوجدت تلك الجوارح وبسطت تلك الهمم، ثم مننت - بعد ذلك - على أقوام بعز الاستغناء عنهم، وعما فى أيديهم بك، فإنك الجواد كل الجواد، لأنهم يعطون عن محدود وعطاؤك لا حد له ولا صفة، فيا جواد يعلو كل جواد، وبه جاد كل من جاد!
[٣٤١: السلمى]

وقال أبو القاسم عبد الله بن محمد: وكنت يومًا فى حلقته، فسمعته يقول: «الحقُ يفنى بما به يُبقى، ويُبقى بما به يُفنى.

[يفنى بما فيه بقاء، ويبقى بما فيه فناء]، فإذا أفنى عبداً عن إياه أوصله

به، وأشرفه على أسراره، وبكى وأنشد:

لها - فى طرفها - لحظات سحر   تميت بها وتحيى من تريد
وتسبى العالمين بمقلتيها   كأن العالمين لها عبيد
ألاحظها فتعلم ما بقلبى   وألحظها فتعلم ما أريد

وبعد: فلقد تقرب الشبلى إلى الله تعالى - كما تقرب أئمة الصوفية - بأداء الفرائض، وطرق باب المحبة - كما طرق بابها أئمة التصوف - بالإكثار من النوافل.

وهداه الله ووفقه - كما هداهم ووفقهم - إلى السير على صراط الأولياء: المحبة.

ثمار:

وانتهى الجهاد والمجاهدة بالشبلى - بتوفيق الله - إلى درجة من الصفاء، أخذ يتحدث فيها عن أمور هى أثر لتجربته الشخصية.

وفى حديثه ما يدل على أنه وصل إلى التحقيق بتعريفه للتصوف من قوله: «ونهايته توحيده»

يقول: محمد بن إبراهيم سمعت الشبلى يقول:

«وقفت بعرفة فطالبت الوقت، فما رأيت أحدًا له فى التوحيد نفس، ثم رحمتهم فقلت: ياسيدى: إن منعتهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك!»

وتحدث الشبلى عن سمات الطريق، ومن ذلك ما يقوله أبو بكر أحمد ابن يعقوب الوارف: سمعت أبا بكر الشبلى يقول:

«صاحب الهمة لا يشتغل بشىء، وصاحب الإرادة يشتغل بشىء!»

وقال: «الهمة لله، وما دونه ليس بهمة».

قال: وسمعته يقول:

«ما ميزتموه بأوهامكم، وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم، فهو مردود إليكم محدث مصنوع».

وكان يقول:

«طرح العادات، وصول إلى الكرامات، ومن حقق رقه لمولاه.[1] استوحش مما سواه».

وقال:

«من عرف الله لا يكون له غم».

أما عن الوصول: فقد سمع الشبلى وهو يقول:

«الأرواح تلطفت، فتعلقت عند لذعات الحقيقة، فلم تر غير الحق معبوداً يستحق العبادة، فأيقنت أن المحدث لا يدرك القديم بصفات معلولة، فإذا صفاه الحق أوصله إليه!»

فيكون الحق أوصله إليه - لا وصل هو!

ويقول عمر البناء المزوق البغدادى بمكة: سمعت الشبلى يقول:

«ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق، وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته!».

ولا يسعنا فى نهاية الحديث عن تصوف الشبلى إلا أن نذكر هذه الكلمات التى تعتبر شعوراً لكل سالك تذوق ووجد!

إنه يقول: «الفرح بالله أولى من الحزن بين يدى الله!»

وكان رضى الله عنه، يقول:

«قلوب أهل الحق طائرة إليه بأجنحة المعرفة، ومستبشرة إليه بموالاة المحبة!»

الفصل الرابع

التصوف والشريعة عند الشبلى

التصوف والشريعة

والتصوف عند الشبلى - وعند غيره من الصوفية - لا يتأتى أن يقوم إلا على أساس من الشريعة. وللصوفية عن ذلك ما لا يحصى من التعاليم والنصائح والأوامر.

وقد كتبنا فى ذلك فصولاً مطولة فى كتاب «المنقذ من الضلال». والشبلى يوجز ذلك فى لمحات تبين منهجه وتوضح طريق الصوفية فى ذلك:

يقول المؤرخون عن الشبلى:

«وكان يبالغ فى تعظيم الشرع المطهر!»

وكان إذا دخل شهر رمضان المبارك جد فى الطاعات، ويقول:

«هذا شهر عظمه ربى. فأنا أقوم بتعظيمه».

وكان الشبلى يقول:

كل صديق لا يكون له معجزة فهو كذاب!

فلما دخل دار العلاج، دخل الوزير عليه، فقال:

أين قولك:

«كل صديق بلا معجزة كذاب؟»

فأين معجزتك أنت؟ فقال:

«موافقة الله فى أوامره ونواهيه».

وهذه الكلمة: «موافقة الله فى أوامره ونواهيه»، هى شعار من شعارات الصوفية يحرصون عليه كل الحرص.

وكما قال سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

«لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمىّ فى الجنة!»

فإن الشبلى يقول:

«لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن!»

وروى الحسين بن أحمد الصفار. قال: سئل الشبلى - وأنا حاضر - أى شىء أعجب؟ قال:

«قلب عرف ربه ثم عصاه».

ولشدة تمسك الشبلى بالشريعة، كان بعض الصالحين يراه فى الرؤيا كما يروى السلمى - ولسانه يلهج بالتمسك بالشريعة. ومن ذلك أن محمد بن الحسين بن الخشاب يقول:

سمعت بعض أصحاب الشبلى يقول:

رأيت الشبلى فى المنام، فقلت له:

يا أبا بكر: من أسعد أصحابك بصحبتك؟

فقال:

أعظمهم لحرمات الله، وألهجهم بذكر الله، وأقومهم بحق الله، وأسرعهم مبادرة فى إرضاء الله وأعرفهم بنقصانه، وأكثرهم تعظيمًا لما عظم الله من حرمة عباده.

وسئل الشبلى عن كمال العقل، وكمال المعرفة، فقال:

«إذا كنت قائماً بما أمرت، تاركا لتكلف ما كفيت، فأنت كامل العقل، وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك، غير ناظر إلى سواه، فأنت كامل المعرفة!»

ويقول محمد بن على بن حبيش:

أُدخل الشبلى دار المرض ليعالج. فدخل عليه على بن عيسى الوزير عائدًا، فأقبل على الوزير، فقال: ما فعل ربك؟

فقال الوزير:

فى السماء يقضى ويمضى.

فقال:

سألتك عن الرب الذى تعبده. لا عن الرب الذى لا تعبده – يريد الخليفة المقتدر – فقال على لبعض حاضريه: ناظره.

فقال الرجل:

يا أبا بكر، سمعتك تقول فى صحتك:

«كل صديق بلا معجزة كذاب»، وأنت صديق فما معجزتك؟

قال:

معجزتى أن تعرض خاطرى فى حال صحوى على خاطرى فى حال سكرى، فلا يخرجان عن موافقة الله تعالى!

الفصل الخامس

متناثرات
من الحكم والمواعظ والطرائف

متناثرات
من الحكم والمواعظ والطرائف

يقول صاحب الكواكب:

ومن كلامه وحكمه التى وشحها بألفاظه وأقلامه، ونضد عقودها بإحكام أحكامه، وملأ بجيوشها صدور مهامه، قال:

«لا يكمل فقير حتى تستوى حالاته سفرًا وحضرًا وغيبة ومشهدًا».

والفقير فى لغته هو الصوفى، لأنه فى كل أوقاته وأحواله فقير إلى الله تعالى.

وقال:

«وقفت بعرفة فطالبت الناس بما يجب من الحضور، والإجلال، فرأيت الغالب عليهم التقصير، فرحمتهم وقلت:

«إلهى إن منعتهم إرادتك فيهم، فلا تمنعهم مناهم منك». ا.هـ.

ويقول أبو الحسن بن سمعون، قال لى الشبلى:

كنت باليمن وكان بباب دار الأمير رحبة عظيمة، وفيها خلق كثير قيام

ينظرون إلى منظرة – فإذا قد ظهر من المنظرة شخص أخرج يده كالمسلم عليهم، فسجدوا كلهم، فلما كان بعد سنين كنت بالشام، وإذا تلك اليد قد اشترت لحماً بدرهم وحملته، فقلت له:

أنت ذلك الرجل؟

قال: نعم. من رأى ذاك ورأى هذا يغتر بالدنيا؟

وقال:

ألا شجا بحنين! ألا رقة بأنين من قلب قريح حزين! ألا شارب بكأس العارفين! ألا غارق فى بحار المحبين! ألا هائم فى ميدان العاشقين، ألا منتبه من رقدة. يا مسكين ستقدم فتعلم، سيكشف لك الغطاء فتندم، كيف بك وقد كشف الغطاء، وتجلى الجليل لفصل القضاء، يا مسكين لم تبكى وتضج؟

دع المعاصى فتستريح، لم هذا الإبطاء، ولم هذا الانتحاب، قف فى الدياجى على الباب. وكان يقول – فى صورة رمزية –

«إنما تصفر الشمس عند الغروب، لأنها عزلت من مكان التمام، فاصفرت لخوف المقام، وهكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا اصفر لونه، فإنه يخاف المقام، وإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة منيرة، كذلك المؤمن إذا خرج من قبره خرج ووجهه مشرق مضىء.

وكان، رضى الله عنه، يقول:

«ما ظنك بشمس، الشموس كلها فيها ظلمة».

وقال:

«الوفاء: الإخلاص فى النطق، واستغراق السرائر بالصدق».

ويقول:

«الحرية هى حرية القلب لا غير».

وقال: «الإفلاس ياناس، الاستئناس بالناس».

وقال: «الزم الوحدة، وامح اسمك من القوم، والزم الجدار حتى تموت.

وقال:

«أهل البلاء أهل الغفلة عن الله».

وقال:

«صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار».

وقال:

«رفع الله العباد على قدر علو هممهم، فلو أجرى على الأولياء ذرة مما أجراه على الأنبياء ذابوا وتقطعوا».

وقال:

«كل صديق ليس له كرامة فهو كذاب».

وكان أبو بكر الدينورى، خادم الشبلى، يقول: سمعت الشبلى يقول قبل موته:

«على درهم واحد مظلمة ظلمته يوم ولايتى، وقد تصدقت عن صاحبه بألوف، وما على قلبى أعظم منه».

وكان إذا دخل عليه فقير يقول له:

أعندك خبر! أوعندك أثر؟ ثم ينشد:

أسائل عن ليلى فهل من مخبر　　يخبرنا علمًا بها أين تنزل؟

ثم يقول:

«وعزتك وجلالك ما غيرك فى الدارين مخبر».

وقال:

«مر بى بهلول المجنون وهو خارج إلى المقابر، ومعه قصبة جعلها فرسه وبيده مقرعة وهو يعدو، فقلت: إلى أين؟ فقال:

إلى العرض على الله، فجلست حتى رجع، وقد انكسرت القصبة، واحمرت عيناه من البكاء، قلت له:

ما كان منك؟ قال:

وقفت بين يديه على أن يكتبنى من الخدام، فلما عرفنى طردنى».

وجاءه نصرانى فأسلم، فقال:

ما سبب إسلامك؟

قال: كنت حال النصرانية أكرم دين النصرانية، فرزقت دين الإسلام ببركة إكرامى ذلك الدين.. فصاح الشبلى وقال:

إذا كان من يكرم الدين الباطل يرزقه الله الدين الحق، فمن يكرم الدين الحق لا يرزقه الله الرحمة والمغفرة؟

وقال:

«لو كان لى فى يوم القيامة أمر لسألت الله أن يملأ جهنم منى وحدى، لئلا يبقى فيها متسع لغيرى، لأفدى بعض أمة محمد، فرأى فى نومه الله يقول:

أما تستحى أن تقول ما قلت...؟ إن كنت تتكرم على خلقى بما يضرك، فأنا خالق الكرم، وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضرنى.

فقلت: وعزتك قد بُهِتّ، فلم أدر ما أقول.

وجاءه رجل فقال: أى الصبر أشد؟ قال: الصبر فى الله؟

قال: لا. قال: فالصبر مع الله؟ قال: لا. قال: فالصبر لله؟ قال: لا.

قال: فأى شيء؟ قال: الصبر عن الله، فصرخ الشبلى صرخة «كادت روحه أن تخرج»، ثم أنشد:

الصبر يجمل فى المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

ولقد كان الشبلى كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

والهجر لو سكن الجنان تحولت ... نعم الجنان على العبيد جحيما

والوصل لو سكن الجحيم تحولت ... حر السعير على العباد نعيما

وكان يقول:

ليس للمريد فترة، ولا للعارف علاقة، ولا للمحب شكوى، ولا للصادق دعوى، ولا للخائف قرار، ولا للخلق من الله فرار».

وقال:

«ليس من احتجب بالخلق عن الحق، كمن احتجب بالحق عن الخلق، وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه، كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته».

ويقول:

«العارف لا يكون بكلام غيره لافظًا، ولا للغير لاحظًا، ولا يرى غير الله حافظًا».

ورئى خارجًا من مسجد يوم عيد وهو يقول:

إذا ما كنت لى عيدًا — فما أصنع بالعيد؟
جرى حبك فى قلبى — كجرى الماء فى العود

وقيل له: العيد قد أقبل، والناس يتزينون، وأنت هكذا؟!

فقال: زينة الفقير (الصوفى) فقره، وصبره على فقره.

وفى العيد أيضًا يقول:

قالوا: أتى العيد ماذا أنت لابسه — فقلت: خلعة ساقى حبة جرعا
فقر وصبر هما ثوباى تحتهما — قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
الدهر لى مأتم إن غبت ماأملى — والعيد ماكنت لى مرأى ومستمعا
أحرى الملابس ماتلقى الحبيب به — يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

وقد سمع أحمد بن محمد بن مقسم الشبلى يقول:

«نظرت فى ذل كل ذى ذل فزاد ذلى عليهم!

ونظرت فى عز كل ذى عز فزاد عزى عليهم!

فإذا عزهم ذل فى عزى!

وتلا فى إثره: ﴿من كان يريد العزة، فلله العزة جميعًا﴾.

وكان يقول:

من اعتز بذى العز، فذل العز له عز.

وقال:

أظلت علينا منك يومًا غمامة — أضاء لها برق وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلو فييئس طامع — ولا غيثها يأتى فيروى عطاشها

وقال رجل للشبلى: ادع الله لى، فأنشأ يقول:

مضى زمن والناس يستشفعون بى — فهل لى إلى ليلى الغداة شفيع!

وكان ينشد فى مجلسه:

الغيب رطب ينادى — ياغافلين الصبوح
فقلت: أهلاً وسهلاً — ما دام فى الجسم روح

ويقول:

قيل لى مجنون ليلى فرضيت، ثم أنشد:

قالوا جننت على ليلى فقلت لهم — الحب أيسره ما بالمجانين

ثم أنشد وقال:

جننا على ليلى وجنت بغيرنا — وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

ثم أنشد:

ولو قلت طأفى النار بادرت نحوها — سرورا لأنى قد خطرت ببالكا

ثم أنشد:

سألبس للصبر ثوبًا جميلاً — وأدرج ليلى ليلاً طويلا

وأصبر بالرغم لا بالرضا أعلل نفسى قليلًا قليلا

ثم أنشد وقال:

قالوا تنقب وزر فقلت لهم أشهر ما كنت حين أنتقب
إن عرفونى وأثبتوا صفتى أصبحت درا والدر ينتهب

ولقد سئل الشبلى عن قول بعضهم:

«لاتغرنكم هذه القبور، وهدوءها، فكم من فرح مسرور، وداع بالويل والثبور!»

فقالوا: أيّا هى القبور عندك؟ قبور الأموات؟!

قال: لا!! بل أنتم القبور، كل واحد منكم مدفون، فالمعرض عن الله داع بالويل والثبور، والمقبل على الله الفرح المسرور».

ثم أنشأ يقول:

قبور الورى تحت التراب وللورى رجال لهم تحت الثياب قبور

فقلت له: يا سيدى: ونعد فى الموتى؟ فقال:

يحبك قلبى ما حييت فإن أمت يحبك عظم فى التراب رميم

وسأله سائل: هل يتحقق العارف بما يبدو له؟ فقال:

«كيف يتحقق بما لا يثبت!».

وكيف يطمئن إلى مالا يظهر!».

«وكيف يأنس بما يخفى!»

«فهو الظاهر الباطن، والباطن الظاهر!». ثم أنشأ يقول:

فمن كان فى طول الهوى ذاق سلوة فإنى من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شىء نلته من وصالها أمانى لم تصدق كلمحة بارق

وقال رجل للشبلى: هل شاهده أحد بحقيقته؟ فقال:

«الحقيقة بعيدة، ولكن ظنون، وأمانى وحسبان». وأنشد:

وكذبت طرفى فيك والطرف صادق وأسمعت أذنى منك ماليس تسمع
ولم أسكن الأرض التى تسكنونها لكيلا يقولوا: إننى بك مولع
فلا كبدى تهدأ ولا لك رحمة ولاعنك إقصاء ولا فيك مطمع

فإذا تراءى له تحقيق حال، شوشه بالتلبيس والأشكال!»

وكثيرا ما كان الشبلى ينشد:

ودادكم هجر وحبكم قلى ووصلكم حرم وسلمكم حرب

وكان ينشد كثيرًا أيضًا:

لما بدا طالعًا غابت هيبته شمس النهار ولم يطلع لنا قمر

وقال أبو نطر الطوسى:

سمعت الحصرى يقول: سمعت الشبلى يقول:

«أعمى الله بصرًا يرانى. ولا يرى فى آثار القدرة، فأنا أحد آثار القدرة، وأحد شواهد العزة. لقد ذللت حتى عزّ فى ذلى كل ذل، وعززت حتى ما تعزز أحد إلا بى، أو بمن تعززت به، وما افترقنا، وكيف نفترق ولم يجر علينا حال الجمع أبدًا؟!».

وقيل للشبلى: متى يكون الشخص مريدًا؟.

قال:

إذا استوت حالاته فى السفر والحضر، والمشهد والمغيب!».

الفصل السادس

تقدير الشبلي

تقديره

لقد استفاض الكثيرون فى الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول:

إمام اشتهر شرفه، وسمت فى جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانته!

ويقول أيضاً: «صار أوحد وقته: علمًا وحالاً».

وقال العروسى فى «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبلى:

فكان لا نظير له فى مجاهداته ومعاملاته لربه، وفى كياسته وحذقه وذكاء قريحته، وتنبيهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن تحقق الخلو من حقوقهم اتهامًا للنفس بالذهول والتقصير..

ويقول عنه الإمام الشعرانى:

«.. صار أوحد أهل الوقت علمًا وحالاً وظرفًا».

ولقد مشى الشبلى يومًا إلى أن جاء إلى مسجد أبى بكر بن مجاهد، فدخل على أبى بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بحديثها، وقالوا لأبى بكر: أنت لم تقم لعلي بن عيسى الوزير، وتقوم للشبلى؟

فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!... رأيت النبى، صلى الله عليه وسلم، فى النوم فقال لى:

يا أبا بكر إذا كان فى غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا جاءك فاكرمه! - قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت النبى، صلى الله عليه وسلم، فى المنام، فقال لى:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلا من أهل الجنة، فقلت يا رسول الله! بما استحق الشبلى هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصلى كل يوم خمس صلوات، يذكرنى فى إثر كل صلاة، ويقرأ:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

﴿فإن تولوا فقل: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾... أفلا أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبناه من فصول بعض ما أثنى به على الشبلى.

تقديره

لقد استفاض الكثيرون فى الثناء عليه، خصوصاً أصحاب الطبقات، ومن ذلك ما يقوله صاحب «الكواكب الدرية»، إنه يقول:

إمام اشتهر شرفه، وسمت فى جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانته!

ويقول أيضاً: «صار أوحد وقته: علمًا وحالاً».

وقال العروسى فى «حاشية الرسالة القشيرية» عن الشبلى:

فكان لا نظير له فى مجاهداته ومعاملاته لربه، وفى كياسته وحذقه وذكاء قريحته، وتنبيهه على مكملات الرجوع إلى الحق باستحلال الخلق، وإن تحقق الخلو من حقوقهم اتهامًا للنفس بالذهول والتقصير..

ويقول عنه الإمام الشعرانى:

«.. صار أوحد أهل الوقت علمًا وحالاً وظرفًا».

ولقد مشى الشبلى يومًا إلى أن جاء إلى مسجد أبى بكر بن مجاهد، فدخل على أبى بكر، فقام إليه أبو بكر فتحدث أصحاب ابن مجاهد

بحديثهما، وقالوا لأبى بكر: أنت لم تقم لعلى بن عيسى الوزير، وتقوم للشبلى؟

فقال أبو بكر: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله، صلى الله عليه وسلم!... رأيت النبى، صلى الله عليه وسلم، فى النوم فقال لى:

يا أبا بكر إذا كان فى غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة، فإذا جاءك فاكرمه! - قال ابن مجاهد: فلما كان بعد ذلك بثلاثين أو أكثر، رأيت النبى، صلى الله عليه وسلم، فى المنام، فقال لى:

يا أبا بكر أكرمك الله كما أكرمت رجلا من أهل الجنة، فقلت يا رسول الله! بما استحق الشبلى هذا منك؟ فقال:

هذا رجل يصلى كل يوم خمس صلوات، يذكرنى فى إثر كل صلاة، ويقرأ:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

﴿فإن تولوا فقل: حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾... أفلا أكرم من يفعل هذا؟

ولقد ذكرنا أيضاً خلال ما كتبناه من فصول بعض ما أثنى به على الشبلى.

ويقول صاحب الكامل فى التاريخ:

أحد مشايخ الصوفية الكبار... ولى خاله إمرة الإسكندرية، وولى أبوه حجابة الحجاب، وولى هو حجابة الموفق ولى العهد.

وسبب توبته أنه حضر مجلس «خير النساج» فسمعه يعظ، فوقع فى قلبه كلامه: فتاب من فوره.

وصحب الجنيد ومن فى عصره، وصار أحد مشايخ الوقت حالاً وقالاً...

الفصل السابع

وفـــاته

الشأن

الذى

ائة.

الله عنه

وحدث

وعرق

لحيته –

ى شىء

بتهيأ أن يقال لرجل لم يذهب عليه تخليل لحيته فى الوضوء عند نزوع روحه، وأمسك لسانه وعرق جبينه؟

وفى ليلة وفاته أخذ الشبلى يذكر تارة، وتارة يردد هذين البيتين:

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا يوم تأتى الناس بالحجج

رحمه الله رحمة واسعة وجزاه خير ما يجزى الصالحين.

خـــاتمــة

حينما تحدثنا عن حياة الشبلى تحدثنا عن علمه، والجهد الكبير الذى بذله فى سبيل تحصيل العلم، حتى لقد قال عنه صاحب الشذرات:

«كان الشبلى فقيهاً عالماً، كتب الحديث الكثير».

ويقول هو عن نفسه:

«كتبت الحديث عشرين سنة، وجالست الفقهاء عشرين سنة».

ووصل الأمر بالشبلى إلى أن أصبح صاحب حلقة يدرس فيها، ويلتف فيها من حوله العلماء والفقهاء:

وموضوع العلم عند الصوفية أمر يهمله كثير من الكاتبين، ربما كان السر فى ذلك أن الأمر أظهر من أن يعقد له الإنسان فصلاً أو يؤلف فيه كتاباً، ولكن النتيجة لذلك كانت أن بعض الناس ظن أن الصوفية ليست لهم صلة وثيقة بالعلم، وتمثلوا الأمر على غرار ما يرونه الآن من بعض من ينتسبون إلى التصوف زوراً، وليس لهم نصيب من العلم..

ونحن إذا كنا قد كتبنا من قبل عن وجوب تفقه الصوفية، خصوصاً من يحتل منهم مركز الإرشاد – فى العلم – فإننا الآن أيضاً نطالب بهذا، ونحن

نكتب عن عالم من كبار العلماء.

وما من شك فى أنه لا يتأتى أن يكون الإنسان صوفيا ما لم يأخذ من العلم نصيباً يمكنه من تصحيح دينه: عقيدة وعبادة وسلوكًا.

أما كبار الصوفية فهم كبار العلماء.

ونحب أن نذكر من ذلك أمثلة لما يمارون فى انتساب الصوفية للعلم، وتعمقهم فيه، وقبل أن نبدأ فى ذكر هذه النماذج نقول:

إن جميع من ذكرهم صاحب حلية الأولياء من الصوفية فى كتابه البالغ أكثر من أربعة آلاف صحيفة، كلهم من العلماء، وما ذكره صاحب كتاب الكواكب الدرية من الصوفية الذين يعدون بالمئات، كلهم من العلماء.

والواقع أن العلم فى الدائرة الصوفية هو العلم بمعناه الإسلامى، أى العلم بالطبيعة، والعلم بما وراء الطبيعة: إنه العلم بالأخلاق وبالفضيلة، وهو العلم بالنواميس الإلهية السارية فى الكون التى يكتشفها علم التشريح، أو علم الطبيعة، أو علم الفلك، أو غير ذلك.

وإذا كانت الحقيقة تسفر عن قناعها بالأمثلة، فإنا نبدأ بمن قال عنه القشيرى:

«سيد هذه الطائفة وإمامهم».

إنه الجنيد:

لقد كان فقيهاً يفتى فى حلقة أستاذه وبحضرته وهو ابن عشرين سنة، وتأمل ما قاله القدماء عن درسه:

لقد كان الكتبة (الأدباء) يحضرون مجلسه لألفاظه.

وكان الفقهاء يحضرون مجلسه لتقريره.

والفلاسفة يحضرون مجلسه لدقة نظره ومعانيه.

أما المتكلمون فكانوا يحضرون مجلسه لتحقيقه.

وكان الصوفية من قبل هؤلاء ومن بعدهم يحضرون مجلسه لإشارته وحقائقه.

ولقد حضر أبو الحسين على بن إبراهيم الحداد يومًا مجلس القاضى أبى العباس بن شريح، فسمعه يتكلم فى الفروع والأصول، (أى فى علم الفقه، وفى علم التوحيد)، بكلام حسن.

ويقول أبو الحسن. فعجبت منه، فلما رأى إعجابى قال: أتدرى من أين هذا؟

قلت: يقول به القاضى.

فقال: هذا ببركة مجالسة أبى القاسم الجنيد.

أما علم الجنيد نفسه، فقد جاهد فى سبيل تحصيله السنين الطوال عن طريق الدرس والتحصيل، وكان هذا الطريق الجانب الكسبى من علمه.

أما الجانب الوهبي، فإنه سئل من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة.

وأومأ إلى درجة في داره.

وقد حفظ الجنيد القرآن، وفهمه، ودرسه، وتدبره، وقيد الحديث واستوعبه قدر الاستطاعة لفظاً ومعنى، رواية ودراية. وذلك أنه يرى – كما يرى غيره من الصوفية – أن ذلك هو الأساس، ولابد من إحكام الأساس.

وإحكام هذا الأساس يجعل من أحكمه فقيهاً، ويجعله محدثاً، ويجعله مفسراً، ويجعله من علماء التوحيد.

ولقد أحكم الجنيد هذا الأساس قدر الاستطاعة:

أحكمه تعبداً، وأحكمه استنارة، وأحكمه لأنه صوفي، وقال فيما رواه القشيري:

«من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الشأن، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

ولقد كرر الجنيد، رضي الله عنه، هذا المعنى حتى يثبت في أذهان الصوفية، يروى الروذباري عن الجنيد أنه قال:

«مذهبنا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

ويروى القشيري أيضاً عن الجنيد أنه قال:

«علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

ويكفي أن يتصفح الإنسان رسائل الجنيد، رضي الله عنه، ليشعر أنه إمام عالم من أئمة علماء المسلمين.

والجنيد، رضي الله عنه، مثال للصوفي على ماينبغي أن يكون، ولم يكن الجنيد بدعًا في عالم الصوفية، فأستاذه الحارث بن أسد المحاسبي لم يكن في زمانه نظير له في علمه..

ومؤلفاته كثيرة متنوعة، وكلها في مستوى سام، حتى لقد كانت من المصادر الرئيسية التي أفادت الإمام الغزالي وأثرت فيه.

وكتاب الرعاية للمحاسبي، كتاب أديب، عالم حجة، وكتابه: فهم القرآن – بحسب ما وصلنا منه من نصوص – كتاب الباحث الدقيق، الذي يتخذ القرآن والسنة أساساً، وينطلق منهما إلى إضاءة جو العقائد، ردا على المبتدعة والمنحرفين.

ولقد حاول ذو النون المصري من قبل الجنيد، أن يكتشف من معميات الكون، ماخفي على الكثيرين:

لقد كانت له جولات في عالم الكيمياء، وأسرار الطبيعة، ولقد حاول أن يكتشف أسرار علم قدماء المصريين، وأن يقرأ كتابتهم، ويتفهم لغتهم، لقد كان يحب اكتناه الغامض، ويحاول أن يزيل القناع عن المحجوب، فضلاً

عن شعاره الدائم، وهو القرآن الكريم، وسنة رسول رب العالمين.

وهل أتاك نبأ الإمام القشيرى، وأنه فسر القرآن، كما يفسره هذا وذاك من علماء اللغة، وعلماء أسباب النزول، وعلماء النحو والبلاغة.. ولم يكن أقل من أى منهم فى علمهم وفنهم.

وأنه لم يكتف بذلك، وإنما ألف فى تفسير القرآن: لطائف الإشارات، فكان إلهامًا من الإلهامات، وكان نورًا من الأنوار، ولم يذكر فيه كل الإشارات، وإنما ذكر لطائفها.

ولقد خاض الإمام الغزالى بحار العلم، وانغمس فيها، ويعبر عن ذلك بقوله:

«ولم أزل فى عنفوان شبابى -منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - اقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل فى كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن، ومبدع، لاأغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانته.

ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

ولا متكلما إلا وأجتهد فى الإطلاع على غاية كلامه ومجالسته.

ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته.

ولا متعبدًا إلا وأترصد مايرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى، من أول أمرى، وريعان عمرى، غريزة وفطرة من الله، وضعتا فى جبلتى لا باختيارى وحيلتى، حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا». اهـ.

أما الذى طوع مختلف العلوم، وامتلك ناصية المعرفة على مختلف فروعها، ووصل فيها على القمة: لم يجاره فى ذلك فيلسوف من فلاسفة الشرق، ولم يجاره فى ذلك فيلسوف من فلاسفة الغرب فإنه:

الشيخ الأكبر، سيدنا محيى الدين.

لقد طوع المعرفة لفكره، وطوعها لقلمه، وبلغ فيها القمة، وبحق سمى الشيخ الأكبر، ولقد كان فى فتوحاته مفسرًا خيرًا من كثير من المفسرين، وفقيهًا خيرًا من كثير من الفقهاء، وشارحًا للحديث خيرًا من كثير من شراحه، وفتوحاته كنز من المعرفة لا ينفد، ومعين من العلم لا ينضب. إنه رشفة من بحار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تتسم دائمًا بنضرة منبعها.

والصوفية فى الجانب العلمى لا يكتفون بالجانب الكسبى: أى جانب التعليم من الكتب، وعلى أساتذة الكتب، ولكنهم قرأوا فى كتاب الله تعالى:

﴿وعلمناه من لدنّا علماً﴾.

فتعلقت آمالهم بهذا العلم الآتى مباشرة من الله، وتطلعت أمانيهم إلى هذا العلم الذى هو من عند الله، واتخذوا الطريق إليه.

والطريق إليه رسمه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز، وعلى لسان رسوله الكريم، إنه الجهاد فى سبيل الله:

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾

وهو العمل بما علموا:

«من عمل بما علم، ورثه الله علم ما لم يعلم».

وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، ومن حقق العبودية لله كان الله سمعه وبصره:

«كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به».

وشعار الصوفية على وجه العموم فيما يتعلق بالعلم، هو شعار أستاذهم وقدوتهم وحبيبهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذى كان شعاره:

﴿رب زدنى علما﴾.

وإذا كان أهل الظاهر قد فرحوا بعلمهم الظاهر، واكتفوا به، فإن

الصوفية قد حصلوا هذا العلم ولكنهم لم يكتفوا به، لقد شاركوا علماء الظاهر فى علمهم، ولكن علماء الظاهر لم يشاركوهم إلهاماتهم وإشراقاتهم:

هل نذكر فى هذا المجال **الإمام الغزالى** فى علمه الظاهر، وفى علمه الباطن؟

هل نذكر القطب الكبير **أبا الحسن الشاذلى**، أو القطب الكبير **أحمد الرفاعى**، أو القطب الكبير **عبد القادر الجيلانى** فى علمهم الظاهر، وفى علمهم الباطن؟

و**الشعرانى** الذى ساهم تقريباً فى جميع فروع المعرفة الدينية، أننساه فى هذا المجال؟ إن التصوف والعلم يؤلفان وحدة متحدة منذ أن نشأ التصوف.

وفى ختام هذا الموضوع ننقل قول صاحب اللمع:

ثم إن طبقات الصوفية أيضًا اتفقوا مع الفقهاء، وأصحاب الحديث فى معتقداتهم، وقبلوا علومهم، ولم يخالفوهم فى معانيهم ورسومهم، إذا كان ذلك مجانباً للبدع واتباع الهوى، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء، وشاركوهم بالقبول والموافقة فى جميع علومهم.

ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث فى الدراية والفهم، ولم يحط بما أحاطوا به علماً، فإنهم راجعون إليهم فى الوقت الذى يشكل عليهم حكم من الأحكام الشرعية، أوحد من حدود الدين، فإذا اجتمعوا فهم فى جملتهم فيما اجتمعوا عليه، فإذا اختلفوا فاستحباب

الصوفية فى مذهبهم الأخذ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين، وتعظيماً لما أمر الله به عباده، واجتناباً لما نهاهم الله عنه.

وليس من مذهبهم النزول على الرخص، وطلب التأويلات، والميل إلى الترفه والسعات، وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاون بالدين، وتخلف عن الاحتياط. وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين، فهذا الذى عرفنا من مذاهب الصوفية ورسومهم فى استعمال العلوم الظاهرة، المبذولة والمتداولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث.

ثم إنهم من بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية، وتعلقوا بأحوال شريفة، ومنازل رفيعة، من أنواع العبادات، وحقائق الطاعات، والأخلاق الجميلة، ولهم فى معانى ذلك تخصيص لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث.

* * *

فهرس الكتاب